تنبيه تحتوي هذه الصحيفة على آيات قرآنية وأحاديث نبوية، فالمرجو صيانتها عن أي امتهان

من أجل منهاج قرآني تجديدي

د. سعيد شبار ص 9

الإنسان والمال : أيهما يسَخِّرُ الآخر ؟

د. فريد الأنصاري رحمه الله تعالى ص 6

المحجة

بسم الله الرحمن الرحيم

المدير المؤسس
المفضل فلواتي رحمه الله تعالى

www.almahajjafes.net almahajjafes@gmail.com نصف شهرية جامعة

المديرالمسؤول : د. عبد العلي حجيج ● 1 رجب 1435هـ - 1 ماي 2014م ● العدد 419 ● الثمن 3 دراهم

افتتاحية

الإسلام دين السلام

«الأصل في معنى (سلم) في القرآن الكريم يفيد ما يُقابل الخصومة، أي الموافقة الشديدة ورفع أي خلاف ظاهراً كان أو باطناً، خاصا أو غيريا، ومنَ لوازم هذا المعنى مفاهيم الانقياد والصلح والرضا، وبذلك فإن الدخول في الإسلام هو دخول في نطاق لا يمكن أن ينال فيه أحداً ألمٌ من صاحبه».

هذا مضمون قول أحد الدارسين وهو يتحدث عن السلام في القرآن الكريم، ذلك السلام الذي يُعَدُّ صفة يكون عليها الفرد أو المجتمع نتيجة علاقات يسودها «الاعتدال» و«الاتزان»؛ مما يحقق «السَّلام النَّفسي» أولاً، ثم «السلام الاجتماعي» ثانيا.

إن السلام النفسي يبدأ بالإسلام لله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (غافر: 66)، أي أن أجعل نفسي وذاتي وقلبي وجوارحي سِلْماً تجاه رب العالَمين، منقادة إليه كل الانقياد، وبذلك تحصل الطمأنينة في القلب لأن اللهَ ربَّ العالمين يكفي من أسلم إليه كل أموره.

وبتأسيس السلام النفسي يَتَأَسَّس السلام الاجتماعي بشكل تلقائي، فالمسلم الذي أسلم نفسه لله جلَ وعلا، لا يحقد على أحد ولا يظلم أحدا، ومن هنا تبرز أهمية تحية الإسلام: «السلام»، التي أُمر المسلمون بإفشائها؛ عند دخول البيوت، ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ (النور: 59) وعند لقاء بعضهم ببعض ومحاولة السبق في ذلك، «إن أولى الناسَ بالله من بدأهم بالسلام» (رواه أبو داود والترمذي)، بل وحتى عند الخصام: «وخيرهما الذي يبدأ بالسلام» (رواه البخاري ومسلم) ثم إنها التحية التي تكون يوم القيامة، عند لقاء الله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ (الأحزاب 44)، وفي الجنة أيضا: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ (يونس:10).

وبناءً على تحية «السلام» وما تحمله من مضمون سام، فإنه لا يجوز أن يروع مسلمٌ مسلما، فضلا عن أن يعنفه أو يعتدي عليه: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ» (أخرجه الإمام مسلم)، «لا يحل لمسلم أن يروع مسلما» (رواه أبو داود)، أما الإجرام والإفساد في الأرض وقتل النفس فأمور حرمها الشرع بالإطلاق: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة 34) وأمر الله تعالى بأن يعاقبَ أصحابها أشد العقاب ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(المائدة: 35)، «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مؤمن بغير حق» (رواه ابن ماجة).

وبذلك تتآلف عناصر السلام بكل أبعادها لتكوِّن بنيات المجتمع المسلم بكل جزئياته ومكوناته، بدءاً بالذات والأسرة، ثم الجيران وما لهم من حقوق،» مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ» (متفق عليه)، ثم أبناء المجتمع والوطن، فأبناء الأمة كلها «من لم يهتم للمسلمين فليس منهم» (أخرجه الحاكم في المستدرك)، ليصل الأمر إلى أبناء الإنسانية جمعاء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: 13).

وبتكامل عناصر السلام في بني آدم ينتقل السلام إلى البيئة ويتجلى فيها، وذلك بالمحافظة عليها من الفساد والدمار، سواء أكانت هذه البيئة في صورة حيوان يسعى، «عُذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض» (صحيح مسلم)،أم في نبات ينبت: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها» (الجامع الصغير، حديث رقم: 2668)، وهو خُلُقٌ شُرع حتى في حالة الحرب، كما في وصية أبي بكر رضي الله عنه للجيش: « وَلا تُعقروا نَخْلا، وَلا تَحْرقُوا زَرْعًا، وَلا تَحْبِسُوا بَهِيمَةً، وَلا تَقْطَعُوا شَجَرَةً مُثْمِرَةً..» (مسند أبي بكر الصديق للمروزي).

إن السلام في الإسلام يترفع عن السلام الشكلي الظاهري الذي لا يلتفت فيه الإنسان إلا إلى نفسه، ويحتقر ما عداه، بل وقد يلجأ إلى الفتك به وتدميره. إن سلام الإسلام لا يمكن أن ينال فيه أحداً من بني البشر ألمٌ من صاحبه، ولا يصيب شيئا في البيئة تدميرٌ أو خراب من بني البشر، إنه سلام الإسلام، الذي هو دين السلام: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (النساء:124).

المحافظة على البيئة وأبعادها المقاصدية

ص 7

الشيخ رشيد رضا وأثره في البعث الإسلامي المعاصر

ص 8

عوائق وشبه في وجه الدعوة

د. زكرياء المرابط ص 4

تذكير بفلسطين في تركيا

ص 14

مفهوم التواصي في القرآن الكريم

دة. كلثومة دخوش

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝

يقول الله سبحانه وتعالى:﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ اَوِ اطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ اَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (البلد : 10 – 16).

ويقول سبحانه في سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر : 1-2-3).

اشتملت سورتا البلد والعصر على مفهوم التواصي الذي جاء في السورة الأولى مضموما إلى الصبر والمرحمة، وفي الثانية إلى الصبر والحق. كما ورد مصطلح التواصي في موضع ثالث مقترنا بالألف للتوبيخ والنفي والتعجب وهو قوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ اَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (الذاريات : 51-52).

والتواصي من الوصية، والمأخذ اللغوي للوصية من الأرض الواصية أي متصلة النبات، قال الراغب الأصفهاني: "الوصية (....) من قولهم أرض واصية متصلة النبات"(1) وقال ابن فارس: "الواو والصاد والحرف المعتلّ: أصلٌ يدلُّ على وَصل شيءٍ بشيء. ووَصَيْتُ الشّيءَ: وصَلْتُه. ويقال: وطِئْنا أرضاً واصيةً، أي إنّ نَبتَها متّصلٌ قد امتلأَتْ منه."

والوصية في اللغة: "التقدم إلي الغير بما يعمل به مقترنا بوعظ"(2)، "وتواصى القوم إذا أوصى بعضهم بعضا"(3).

إذا رجعنا إلى سورتي البلد والعصر، فإننا نقف على جملة من المعطيات منها:

– أن التواصي بالصبر وبالحق وبالمرحمة من صفات المؤمنين: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (البلد : 16) ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر :3).

– أن هذا التواصي هو من الأعمال التي تنجي صاحبها من الوعيد بالخسران، حسب سورة العصر، وتساعده على اقتحام العقبة، حسب سورة البلد.

والعقبة فسرت بعدة معان أبرزها الصراط وطريق النجاة، والظاهر أنها "مَثَلٌ ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البرّ، فجعله كالذي يتكلّف صعود العَقَبة"(4).

• أن هذا التواصي يتكرر مرتين في كلا الموضعين: "وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ"- "وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ".

> **التواصي لا يتم إلا بالتعاون بين المؤمنين كما سبق، وكما تدل عليه صيغة الفعل؛ لأن ما يتم التواصي به من حق وصبر ومرحمة كلها من المعاني العظيمة التي يفتن الناس بعضهم بعضا عن التمسك بها نهجا لحياتهم**

• أن هذا التواصي يكون بعد صلاح القائم به في نفسه وقيامه بصالح الأعمال الذي ورد مجملا في سورة العصر ومفصلا ومفسرا بالإنفاق في سبيل الله في سورة البلد.

• أن التواصي بالصبر جاء قبل التواصي بالمرحمة وبعد التواصي بالحق، حيث بدأ الله به في سورة البلد: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾، وأخره في سورة العصر: "وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ"، ومعلوم أن الصبر يشمل الصبر على الطاعات والصبر على المعاصي والصبر على الابتلاءات.

هذه المعطيات تبين أن التواصي لا يتم إلا بالتعاون بين المؤمنين كما سبق، وكما تدل عليه صيغة الفعل؛ لأن ما يتم التواصي به من حق وصبر ومرحمة كلها من المعاني العظيمة التي يفتن الناس بعضهم بعضا عن التمسك بها نهجا لحياتهم، ولا يستقيم العبد عليها إلا إذا هيأ الله له من يعينه عليها ويذكره بها، وهذا بدوره لا يذكر بها ويعين غيره عليها إلا إذا أدرك قيمتها في النسق الإيماني الكلي من جهة، وأدرك صعوبة الاستقامة عليها من جهة ثانية.

وهذا التعاون بين المؤمنين يتأسس، فضلا عما سبق، على مبدأ من أهم مبادئ ديننا الحنيف وهو حب الخير للآخر، انطلاقا من قوله ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"(5)، وأهمية التواصي بهذه المعاني العظيمة تفهم كذلك من تكرار لفظ التواصي، وقد يكون هذا التكرار ذا معنى آخر، خاصة في سورة العصر: ذلك أن التواصي بالحق هو التواصي بالتزام شرع الله الوارد في الكتاب والسنة، والتواصي بالصبر يكون بعده، فيكون بمعنى التواصي بالصبر على التمسك بهذا الحق والصبر عليه، قال الرازي عند تفسيره لسورة العصر: "ثم كرر التواصي ليضمن الأول الدعاء إلى الله، والثاني الثبات عليه (6).

ولهذا جاء الصبر هنا بعد الحق، بينما ذكرت المرحمة بعده في سورة البلد، وهي تناسب ما سبقها من حث على إطعام الفقير والمسكين رحمة بهم ورأفة لحالهم الذي بينته الآية الكريمة.

---

1. المفردات.
2. نفسه.
3. لسان العرب.
4. زاد المسير.
5. متفق عليه واللفظ للبخاري.
6. مفاتيح الغيب.

مواقف وأحوال

يا بكار، تقدم إليك رجلان في كذا، وتقدم إليك خصمان في كذا، وحكمت بكذا، فما يكون جوابك غداً؟

لم أجد بعد الظلم الصارخ في بلد الكنانة، والأحكام المتتالية بقتل ما يزيد على الألف والحكم بالمؤبد وعشرات السنين على أضعافهم، إلا أن أذكر نفسي ببعض المواقف التي تبين أن هذا النوع من «القضاة» مجرد بيادق في يد حكام ظلمة فسقة فجرة، يشترونهم بدريهمات معدودة، ولا يستطيع أن يحكم بالعدل، ويقضي بالحق إلا رجل عرف ربه، وأمسك عن مال السلطان، ولقد وجدت للقاضي بكار رحمه الله مع حاكم مصر يومئذ أحمد بن طولون قصة أشبه ما تكون بواقع مصر الحال، قرر فيها الحاكم الانقلاب على ولي العهد وأغرى القاضي بالأموال، فكيف كانت النتيجة؟

أبو بكرة بكار بن قتيبة رجل تولى القضاء بمصر في منتصف القرن الثالث الهجري، وظهر من حسن سيرته وجميل طريقته الشيء الكثير، من ذلك أن أحمد بن طولون صاحب مصر كان يدفع له كل سنة ألف دينار، زائدة على مرتبه الرسمي، فكان القاضي بكار يترك أكياس الدنانير الذهبية مختومة كما جاءت، ولا يكلف نفسه عناء فتحها، ولا يتصرف فيها، فلما أراد بن طولون الانقلاب على الموفق بن المتوكل وإزالته من ولاية العهد، دعا القاضي إلى ذلك فرفض القاضي وامتنع من المشاركة في هذا الانقلاب وتزكيته، فاعتقله أحمد بن طولون، وطالبه بجملة المبلغ الذي كان يدفعه له كل سنة في صورة هبة ومكرمة، وحقيقته رشوة كان يشتري بها موقف القاضي حين يريده، فما كان من القاضي بكار إلا أن حمل المبلغ كاملا مازال مختوما كما خرج من عند الأمير أول مرة، وكان ثمانية عشر كيساً، فاستحيا أحمد منه، وكان يظن أن القاضي أنفقها، وأنه يعجز عن القيام بها فلهذا طالبه، وبقي مسجوناً مدة سنين.

وكان القاضي بكار أحد البكائين التالين لكتاب الله عزوجل.

وكان إذا فرغ من الحكم خلا بنفسه، وعرض عليها قصص جميع من تقدم إليه وما حكم به وبكى.

وكان يخاطب نفسه ويقول: يا بكار، تقدم إليك رجلان في كذا، وتقدم إليك خصمان في كذا، وحكمت بكذا، فما يكون جوابك غداً؟.

وكان يكثر الوعظ للخصوم إذا أراد اليمين، ويتلو عليهم قوله تعالى ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أُولَئِك لَا خَلاقَ لَهُمْ فِي الاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾

وكان يحاسب أمناءه في كل وقت، ويسأل عن الشهود في كل وقت.

هذا هو قضاء مصر الشامخ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

د. امحمد العمراوي
من علماء القرويين
amraui@yahoo.fr

د. عبد الرحمن بودراع

مِنْ بَلاغَةِ الإيجازِ والْجَمْعِ في الْبَيانِ النَّبَوِيّ

فنُّ إفْرادُ الْحَديثِ الْواحِدِ بالتَّصْنيف 2

لقد أوتي رسول الله ﷺ جوامع الكلم، التي جُعلت لنبوَّته ردءاً، ولرسالته علماً، لينتظم في القليل منها علمُ الكثير، فيسهل على السامعين حفظه.

وبذلك يتضمن الحديث الواحد من أصناف الفوائد، كقواعد الدين العظيمة والنكت البلاغية والاحتمالات الدلالية والمستنبطات الفقهية.

ومن المؤلفات التي وضعت لشرح الحديث الواحد ما يلي :

1 – كتابُ «اخْتيار الأَوْلى، شَرْحُ حَديث اخْتصام الْمَلأ الأَعْلى، الْكَفّاراتُ والدَّرَجاتُ والدَّعَواتُ»(1). مدارُ الْكتاب عَلى شَرْح حَديث خَرَّجَهُ الإمامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَل مِنْ حَديث مُعاذ بْن جَبَل، قالَ: «احْتَبَسَ عَنّا رَسولُ الله ﷺ ذاتَ غَداة في صَلاة الصُّبْح حَتّى كِدْنا نَتَراءى قَرْنَ الشَّمْس، فَخَرَجَ الرَّسولُ ﷺ سَريعًا، فَثوّبَ بالصَّلاة، وَصَلّى وتَجَوَّزَ في صَلاته، فَلَمّا سَلَّمَ قالَ: إنّي سَأُحَدِّثُكُمْ ما حَبَسَني عَنْكُمُ الْغَداةَ، إنّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْل، فَصَلَّيْتُ ما قُدِّرَ لي، فَنَعَسْتُ في صَلاتي حَتّى اسْتَثْقَلْتُ، فَإذا أنا بِرَبّي عَزَّ وجَلَّ في أَحْسَن صورَة، فَقالَ: يا مُحَمَّدُ، أَتَدْري فيمَ يَخْتَصمُ الْمَلأُ الأَعْلى؟ قُلْتُ: لا أَدْري رَبِّ. قالَ فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّيْه بَيْنَ كَتِفَيّ، حَتّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنامله في صَدْري، وتَجَلّى كُلُّ شَيْء وعَرَفْتُ، فَقالَ: يا مُحَمَّدُ، فيمَ يَخْتَصمُ الْمَلأُ الأَعْلى؟ قُلْتُ: في الْكَفّارات والدَّرَجات. قالَ: وما الْكَفّاراتُ؟ قُلْتُ: نَقْلُ الأَقْدام إلى الْجُمُعات، والْجُلوسُ في الْمَساجد بَعْدَ الصَّلَوات، وإسْباغُ الْوُضوء عِنْدَ الْكَريهات. قال: وما الدَّرَجاتُ؟ قُلْتُ: إطْعامُ الطَّعام، ولِينُ الْكَلام، والصَّلاةُ والنّاسُ نِيامٌ. قالَ: سَلْ. قُلْتُ: اللَّهُمَّ إنّي أَسْأَلُكَ فعْلَ الْخَيْرات، وتَرْكَ الْمُنْكَرات، وحُبَّ الْمَساكين، وأَنْ تَغْفرَ لي وتَرْحَمَني، وإذا أَرَدْتَ فتْنَةً في قَوْم فَتَوَفَّني غَيْرَ مَفْتون، وأَسْأَلُكَ حُبَّكَ وحُبَّ مَنْ يُحبُّكَ وحُبَّ عَمَل يُقَرِّبُني إلى حُبِّكَ. وقالَ رَسولُ الله ﷺ : إنَّها حَقٌّ، فَادْرُسوها وتَعَلَّموها» والْحَديثُ خَرَّجَهُ التِّرْمذيُّ، وقالَ: حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ، وكذا قالَهُ الْبُخاريّ.

والمَقْصودُ هُنا شَرْحُ الْحَديث، واسْتِنْباطُ ما يُسْتَنْبَطُ منْهُ منَ الْمَعارف والأَحْكام...

أ– ففي الْحَديث دلالَةٌ عَلى أَنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ مِنْ عادَته تَأْخيرُ صَلاة الصُّبْح إلى قَريب طُلوع الشَّمْس، وإنّما كانَتْ عادَتُهُ التَّغْليسَ بها... ولهذا اعْتَذَرَ لَهُمْ عَنْهُ في الْحَديث ...

ب– وفيه دلالَةٌ عَلى أَنَّ مَنْ أَخَّرَ الصَّلاةَ إلى آخر الْوَقْت لعُذْر أَوْ غَيْره، وخافَ خُروجَ الْوَقْت في الصَّلاة إنْ طَوَّلَها، أَنْ يُخَفِّفَها حَتّى يُدْرِكَها كُلَّها في الْوَقْت ...

ج– وفيه دَليلٌ عَلى أَنَّ مَنْ رَأى رُؤْيا تَسُرُّهُ فَإنَّهُ يَقُصُّها عَلى أَصْحابه وإخْوانه الْمُحبّينَ لَهُ، و لا سيما إذا تَضَمَّنَتْ رُؤْياهُ بِشارَةً لَهُمْ، وتَعْليمًا لِما يَنْفَعُهُمْ...

د– وفيه دلالَةٌ عَلى أَنَّ الْمَلأَ الأَعْلى، وهُمُ الْمَلائكَةُ أَوِ الْمُقَرَّبونَ منْهُمْ، يَخْتَصمونَ فيما بَيْنَهُمْ، ويَتَراجَعونَ الْقَوْلَ في الأَعْمال التي تُقَرِّبُ بَني آدَمَ إلى الله عَزَّ وجَلَّ، وتُكَفِّرُ بها عَنْهُمْ خَطاياهُمْ...(2)

2 – كتابُ «نور الاقْتباس في مشْكاة وَصيَّة النَبيِّ ﷺ لابْن عَبّاس» للإمام الحافظ ابْن رَجَب الْحَنْبَليِّ. وهُوَ شَرْحٌ للْحَديث الذي خَرَّجَهُ الإمامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَل مِنْ حَديث حَنَش الصَّنْعانيِّ عَنْ عَبْد الله بْن عَبّاس، قالَ: كُنْتُ رَديفَ النَّبيِّ ﷺ، فَقالَ: «يا غُلامُ–أَوْ يا غُلَيِّمُ– أَلا أُعَلِّمُكَ كَلماتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بهنَّ؟ فَقُلْتُ: بَلى، فَقالَ: احْفَظ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظ اللهَ تَجِدْهُ أَمامَكَ. تَعَرَّفْ إلى الله في الرَّخاء يَعْرِفْكَ في الشِّدَّة. وإذا سَأَلْتَ فَاسْأَل اللهَ، وإذا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بالله. قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بما هُوَ كائنٌ. فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَميعًا أَرادوا أَنْ يَنْفَعوكَ بشَيْء لَمْ يَقْضه اللهُ، لَمْ يَقْدروا عَلَيْه. وإنْ أَرادوا أَنْ يَضُرّوكَ بشَيْء لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدروا عَلَيْه. واعْلَمْ أَنَّ في الصَّبْر عَلى ما تَكْرَهُ خَيْرًا كَثيرًا، وأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْر، وأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْب، وأَنَّ مَعَ الْعُسْر يُسْرًا».

أَوْرَدَ ابْنُ رَجَب الْحَديثَ بطُرُقه الْمُخْتَلفَة التي خَرَّجَها الإمامُ أَحْمَدُ، وخَرَّجَهُ التِّرْمذيُّ في سياق مُخْتَصَر. وقَدْ قَسَّمَ الْحافظُ ابْنُ رَجَب الْحَديثَ إلى جُمَل ومَقاطعَ، وشَرَحَ ما وَرَدَ فيها منْ فَوائدَ، وما تَضَمَّنَهُ منْ وَصايا عَظيمَة وقَواعدَ كُلِّيَّة منْ أَهَمِّ أُمور الدّين و أَجَلِّها.

وقَدِ اسْتَخْرَجَ منْ كُلِّ جُمْلَة منْ جُمَل الْحَديث ما يَدْخُلُ فيه منْ فَوائدَ فَقْهيَّة؛ فَحَفْظُ الله يَعْني حفْظَ حُدوده، وحفْظُ حُدوده هيَ الالْتزامُ بالْفَرائض، وعَدَمُ انْتهاك الْمُحَرَّمات، وعَدَمُ تَعَدّي الْحُدود، و يُؤَيِّدُ كُلَّ مَعْنًى طائفَةٌ منَ الشواهد الْقُرْآنيَّة والْحَديثيَّة...

وقَدْ عامَلَ كُلَّ لَفْظ مُعامَلَةَ الْكَلمَة الْجامعَة، التي تَحْتَملُ الْمَعانيَ والْقَواعدَ والأُصولَ الشَّرْعيَّةَ، احْتمالَ تَنَوُّع وتَكامُل، ممّا يُؤَلِّفُ الصّورَةَ الْعامَّةَ التي يَنْبَغي اسْتحْضارُها عنْدَ فَهْم اللَّفْظ منْ أَلْفاظ الْحَديث، وهَذا هُوَ الْمَنْهَجُ الْمَطْلوبُ في فَهْم كَلم الْحَديث النَّبَويِّ؛ لأَنَّهُ لا يُقْتَصَرُ في فَهْمه والْعَمَل به عَلى ما يَدُلُّ عَلَيْه مَعْناهُ اللُّغَويُّ، وإنَّما يُنْتَقَلُ إلى اسْتخْراج كُلِّ ما يَحْتَملُهُ ويَتَضَمَّنُهُ ممّا يَقْتَضيه الشَّرْعُ ولا يُناقضُهُ، فَذلكَ وَجْهٌ منْ أَوْجُه «الإيجاز والْجَمْع في الْكَلم»، وهُوَ الْبَلاغَةُ الْحَديثيَّةُ والْحكْمَةُ النَّبَويَّةُ.

ومِنْ مَزايا مَنْهَج دراسَة الْحَديث منْ جهَة «الإيجاز وجَمْع الْكَلم»، أَنَّهُ قَدْ يَقفُ عنْدَ عبارَة أَوْ جُمْلَة أَوْ بضْع جُمَل، فَيَعُدُّها مَدارَ الْحَديث كُلّه والأَصْلَ فيه، وأَنَّ ما بَعْدَهُ وما قَبْلَهُ منْ كَلام مُتَفَرِّعٌ عَنْهُ وراجعٌ إلَيْه. وهذا ما يَظْهَرُ في فَهْم ابْن رَجَب لقَوْل النَبيِّ ﷺ : «فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ جَميعًا أَرادوا أَنْ يَنْفَعوكَ بشَيْء لَمْ يَقْضه اللهُ، لَمْ يَقْدروا عَلَيْه، وإنْ أَرادوا أَنْ يَضُرّوكَ بشَيْء لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدروا عَلَيْه». فَقَدْ عَدَّ هذه الْوَصيَّةَ مَدارَ هذا الْحَديث وأَصْلاً لَهُ، وأَنَّ غَيْرَهُ منْ وَصايا فُروعٌ عَلَيْه فَإنَّهُ إذا عَلمَ الْعَبْدُ أَنَّهُ لَنْ يُصيبَهُ إلاّ ما كَتَبَ اللهُ لَهُ منْ خَيْر أَوْ شَرٍّ أَوْ نَفْع أَوْ ضَرٍّ، وأَنَّ اجْتهادَ الْخَلْق كُلِّهمْ جَميعًا عَلى خلاف الْمَقْدور غَيْرُ مُفيد شَيْئًا الْبَتَّةَ، عَلمَ حينَئذ أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ وَحْدَهُ هُوَ النّافعُ والضّارُّ والْمُعْطي والْمانعُ، فَأَوْجَبَ ذلكَ للْعَبْد تَوْحيدَ رَبِّه عَزَّ وجَلَّ، وإفْرادَهُ بالاسْتعانَة والسُّؤال والتَّقَرُّب، وإفْرادَهُ بالطّاعَة والْعبادَة؛ لأَنَّ الْقَصْدَ منَ الْعبادَة جَلْبُ الْمَنافع ودَرْءُ الْمَضارّ، ولهذا ذَمَّ اللهُ سُبْحانَهُ مَنْ يَعْبُدُ ما لا يَنْفَعُ ولا يَضُرُّ، فَلا يُعْبَدُ إلاّ مَنْ بيَده النَّفْعُ والضُّرُّ، والعَطاءُ والمَنْعُ، ولا يُفْرَدُ بالطّاعَة إلاّ هُوَ.

قالَ ابْنُ رَجَب: «وقَد اشْتَمَلَتْ هذه الْوَصيَّةُ الْعَظيمَةُ الْجامعَةُ عَلى هذه الأُمور الْمُهمَّة كُلِّها».

3 – كتابُ «بُغْيَةُ الرّائد لما تَضَمَّنَهُ حَديثُ أُمِّ زَرْع منَ الْفَوائد» للْقاضي عياض بْن موسى الْيَحْصبيِّ السَّبْتيِّ الْمُتَوَفّى سَنَةَ (544هـ)(3).

شَرَحَ الْقاضي عياض في كتابه (الْبُغْيَة) حَديثَ أُمِّ زَرْع، وفَسَّرَ مُشْكلَ الْمَعاني والأَغْراض، وشَرَحَ الْغَريبَ، واسْتَخْرَجَ منْهُ ما تَضَمَّنَهُ منْ فَوائدَ واسْتَنْبَطَ ما به منْ فقْه.

فَممّا تَضَمَّنَهُ منْ فَقْه: حُسْنُ عشْرَة الرَّجُل مَعَ أَهْله، وتَأْنيسُهُنَّ واسْتحْبابُ مُحادَثَتهنَّ بما لا إثْمَ فيه(4). ثُمَّ اسْتَثْنى منْ ذلكَ الأَمْرَ الْمَكْروهَ منْهُ بقَوْله: «إنَّهُ طَلَّقَها، وإنّي لا أُطَلِّقُكَ»، تَتْميمًا لتَطْييب نَفْسها وإكْمالاً لطُمَأْنينَة قَلْبها(5).

وفيه منَ الْفقْه مَنْعُ الْفَخْر بحُطام الدُّنْيا وكَراهَتُهُ؛ فَحينَ فَخَرَتْ عائشَةُ، رَضيَ اللهُ عَنْها، في أَوَّل الْحَديث بمال أَبيها، قالَ لَها: «اُسْكُتي يا عائشَةُ»، ثُمَّ إنَّهُ أَنْسَاها بأَنْ قَرَّرَ عنْدَها فَخْرًا آخَرَ، هُوَ أَوْلى بها وأَسْعَدُ لها بقَوْله: «كُنْتُ لَكَ كَأَبي زَرْع لأُمِّ زَرْع»(6).

وفيه مِنَ الْفقْه أَخْبارُ الرَّجُل وزَوْجه وأَهْله بصورَة حاله مَعَهُمْ، وحُسْن صُحْبَته إيّاهُمْ، وإحْسانه إلَيْهمْ... واسْتجْلابًا لمَوَدَّتهمْ(7).

وفيه مِنَ الْفقْه إكْرامُ الرَّجُل بَعْضَ نسائه بحَضْرَة ضَرائرها، بما يَراهُ منْ قَوْل أَوْ فعْل، وتَخْصيصُها بذلكَ، كَما قالَتْ عائشَةُ، رَضيَ اللهُ عَنْها: «لَيَخُصَّني بذلكَ»، ولأَنَّها كانَت الْمَقْصودَةَ بهذا الْحَديث، وهذا إذا لَمْ يَكُنْ قَصْدُهُ الأَثَرَةَ والْمَيْلَ لَها بذلكَ، بَلْ لسَبَب اقْتَضاهُ ومَعْنًى أَوْجَبَهُ منْ تَأْنيس وَحْشَة بَدَتْ منْها، أَوْ مُكافَأَة جَميل صَدَرَ عَنْها(8) وفيه منَ الْفقْه جَوازُ تَحَدُّث الرَّجُل مَعَ إحْدى أَزْواجه، ومُجالَسَتها في يَوْم الأُخْرى ومُحادَثَتها؛ لقَوْل عائشَةَ، رَضيَ اللهُ عَنْها: «قالَ لي رَسولُ الله ، وقَدِ اجْتَمَعَ عنْدَهُ نساؤُهُ»، وفي رواية أُخْرى: «وعنْدي بَعْضُ نسائه»، فَالظّاهرُ أَنَّهُ في بيْتها.

وفيه مِنَ الْفقْه: جَوازُ الْحَديث عَنِ الأُمَم الْخاليَة، والأَجْيال الْبائدَة، والْقُرون الْماضيَة، وضَرْب الأَمْثال بهمْ ؛ لأَنَّ في سيَرهمْ اعْتبارًا للْمُعْتبر، واسْتبْصارًا للْمُسْتبْصر... فَإنَّ في هذا الْحَديث –لا سيَّما إذا حدّث به النِّساءَ – مَنْفعَةً في الْحَضّ عَلى الْوَفاء للْبُعولَة... كَحال أُمِّ زَرْع، وما ظَهَرَ منْ إعْجابها بأَبي زَرْع وثَنائها عَلَيْه وعَلى جَميع أَهْله... وبسَبَب قصَّتها كانَ جَلْبُ الْحَديث، مَعَ ما فيه منَ التَّعْريف بصَبْر الأُخْر اللاّتي ذَممْنَ أَزْواجَهُنَّ، والإعْلام بما تَحَمَّلْنَهُ منْ سوء عشْرَتهمْ وشَراسَة أَخْلاقهمْ؛ ليَقْتَديَ بذلكَ منَ النِّساء مَنْ بَلَغَها خَبَرُهُنَّ في الصَّبْر عَلى ما يَكونُ منَ الأَزْواج(9)...

وفيه منَ الْفقْه التَّحَدُّثُ بمُلَح الأَخْبار و طُرَف الْحكايات تَسْليَةً للنَّفْس، وجَلاءً للْقَلْب. وقَدْ تَرْجَمَ التِّرْمذيُّ للْحَديث بـ «باب ما جاءَ في كَلام رَسول الله ﷺ في السَّمَر، (أَدْخَلَ في الْباب هذا الْحَديثَ وحَديثَ خُرافَةَ(10)، وهُوَ حَديثٌ مُنْكَرٌ). فَالْقَلْبُ إذا أُكْرهَ عَميَ، ولكنَّ الْمُباحَ منَ اللَّهْو جائزٌ ما لَمْ يَكُنْ دائمًا مُتَّصلاً، وإنَّما يَكونُ في النّادر والأَحْيان، ساعَةً بَعْدَ ساعَة، وأَمّا أَنْ يَكونَ عادَةً في الرَّجُل حَتّى يُعْرَفَ به ويُطْرَبَ النّاسَ ويُضْحكَهُمْ، فَهذا مَذْمومٌ دالٌّ عَلى سُقوط الْمُروءَة ورَذالَة الْهمَّة واطّراح الْوَقار، وقادحٌ في عَدالَة الشّاهد(11).

وفيه منَ الْفقْه بَسْطُ الْمُحَدِّث والْعالم لما أَجْمَلَ منْ علْمه لمَنْ حَوْلَهُ، وبَيانُهُ لَهُمْ، منْ تلْقاء نَفْسه، كَما فَعَلَ رَسولُ الله ﷺ في هذا الْحَديث، وقَدْ قالَ لعائشَةَ رَضيَ اللهُ عَنْها: «كُنْتُ لَكَ كَأَبي زَرْع لأُمِّ زَرْع»، قالَتْ: ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُ الْحَديثَ(12).

وفيه منَ الْفقْه سُؤالُ السّامع الْعالمَ شَرْحَ ما أَجْمَلَهُ لَهُ؛ فَقَدْ وَقَعَ في بَعْض طُرُقه عَنْ عائشَةَ رَضيَ اللهُ عَنْها أَنَّها لَمّا قالَ لَها: «أَنا لَكَ كَأَبي زَرْع لأُمِّ زَرْع»، قالَتْ: يا رَسولَ الله: وما حَديثُ أَبي زَرْع ؟ فَذَكَرَ رَسولُ الله ﷺ الْحَديثَ(13).

وبَعْدَ أَن اسْتَنْبَطَ الْقاضي عياض ما في حَديث أُمِّ زَرْع منَ الْفَوائد الْفقْهيَّة، شَرَعَ في اسْتخْراج غَريب كُلِّ قَوْل منْ أَقْوال النِّساء، ومَعْناهُ، وعَرَبيَّتَه، و بَيانه و فقْهه، إنْ كانَ فيه ما يُسْتَنْبَطُ منْ فقْه.

ثُمَّ خَتَمَ الْكتابَ بذكْر ما اشْتَمَلَ عَلَيْه الْحَديثُ منْ ضُروب الْفَصاحَة، وفُنون الْبَلاغَة، وأَنْواع الْبَديع، بَعْدَ أَن اسْتَخْرَجَ مَنْهُ نَحْوَ عشْرينَ مَسْأَلَةً في الْفقْه ومثْلها منَ الْعَرَبيَّة.

---

1 – الْكتابُ لابْن رَجَب الْحَنْبَليِّ (ت.795) ، حَقَّقَهُ : حُسين الْجَمَل ، ط/1 ، 1407–1987 ، مُؤَسَّسَةُ الْكُتُب الثَّقافيَّة.

2 – [اخْتيارُ الأَوْلى ، شَرْحُ حَديث اخْتصام الْمَلأ الأَعْلى]، لابْن رَجَب الْحَنْبَليّ : ص: 17–27 .

3 – تَحْقيق : صَلاح الدّين الإدْلبيّ و محمّد أجانف و محمّد عبد السَّلام الشرْقاويّ ، ط/ وزارَة الأَوْقاف و الشُّؤون الإسْلاميَّة، الْمَغْرب، 1395هـ1975–م .

4 – [بُغْيَةُ الرّائد: 32] .

5 – [بُغْيَة الرّائد: 167] .

6 – [بُغْيَة الرّائد: 33] .

7 – [بُغْيَة الرّائد: 33] .

8 – [بُغْيَة الرّائد: 33–34] .

9 – [بُغْيَة الرّائد: 35–36] .

10 – رَواهُ الإمامُ [أَحْمَدُ في مُسْنَدِه : 157/6]، رقم:[25283].

11 – [بُغْيَة الرّائد: 37–40] .

12 – [بُغْيَة الرّائد: 41–42] .

13 – [بُغْيَة الرّائد: 42] .

الآراء الواردة في مقالات الجريدة تعبر عن وجهة نظر أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الجريدة

جريدة المحجة
المدير المؤسس: ذ. المفضل فلواتي
المدير المسؤول: د. عبد العلي حجيج
مسؤول الإخراج: رشيد صدقي
الموقع الالكتروني : www.almahajjafes.net
البريد الالكتروني : almahajjafes@gmail.com
عنوان المراسلة : حي عز الله، زنقة 2 رقم 3 فاس المغرب
الهاتف : 0535931113
الناسوخ : 0535944454
الإيداع القانوني : 1994–61
رقم الصحافة : 91/11
الترقيم الدولي : 3627–1113
الطبع : إكوبرانت
التوزيع : سابريس

عوائق وشبه في وجه الدعوة 4/4

د. زكريا المرابط

قد أقعدت شبه بعض المسلمين عن واجب الدعوة إلى الله عز وجل منها:

أولا: كون الدعوة فرض كفاية. والكفاية معناها أنه إذا قام به البعض سقط عن الباقي، وهذا الفهم جعل كثيرا من المسلمين يتقاعسون عن واجب الدعوة وما علموا أن المسلمين مطالبون بإقامتها وإعانة القائمين عليها.

وللإمام الشاطبي رحمه الله كلام نفيس في ذلك قال: «إن فرض الكفاية واجب على الجميع على وجه من التجوز؛ لأن القيام بذلك الفرض قيام بمصلحة عامة، فهم مطلوبون بسدها على الجملة، فبعضهم هو قادر عليها مباشرة، وذلك من كان أهلا لها، والباقون وإن لم يقدروا عليها قادرون على إقامة القادرين، فمن كان قادرا على الولاية فهو مطلوب بإقامتها، ومن لا يقدر عليها مطلوب بأمر آخر وهو إقامة ذلك القادر وإجباره على القيام بها، فالقادر إذن مطلوب بإقامة الفرض، وغير القادر مطلوب بتقديم ذلك القادر إذ لا يتوصل إلى قيام إلا بالإقامة من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب (الموافقات 144/1).

ثانيا: كون الدعوة من اختصاص العلماء، وأنه من لم يكن عالما فغير مطالب بالدعوة إلى الله.

والجواب أنه إذا كان العلماء ورثة الأنبياء، وحملة دعوتهم إلى الأمم، فإن العلم يتجزأ ويتبعض، فمن علم مسألة وجهل أخرى، فهو عالم بالأولى، جاهل بالثانية. ومن ثم يكون الواجب عليه أن يدعو إلى ما علم لا إلى ما جهل، والرسول ﷺ يقول «بلغوا عني ولو آية» وقال في حجة الوداع «فليبلغ الشاهد الغائب».

ثالثا: كون الداعي إلى الله عز وجل يلزمه أن يكون عدلا وعلى أعلى درجات الكمال.

وهذا من لزوم ما لا يلزم، وقد ذكر العلماء أنه لا يلزمه ذلك، وإنما يمتثل الأمر على قدر الاستطاعة قال تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾(التغابن 16).

قال الحسن لمطرف بن عبد الله، عظ أصحابك، فقال: إني أخاف أن أقول ما لا أفعل، قال: يرحمك الله، وأينا يفعل ما يقول يود الشيطان أنه ظفر بهذا فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر.

وقال الإمام القرطبي: وليس من شرط الناهي أن يكون عدلا عند أهل السنة... فإن العدالة محصورة في القليل من الخلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عام في جميع الناس، فإن تشبثوا بقوله تعالى:﴿أتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾(البقرة 44) وقوله: ﴿كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾(الصف 3).. ونحوه قيل لهم: «إنما وقع الذم ههنا على ارتكاب ما نهي عنه لا على نهيه عن المنكر، ولا شك في أن النهي عنه ممن يأتيه أقبح ممن لا يأتيه، ولذلك يدور في جهنم كما يدور الحمار بالرحى كما بيناه» (الجامع لأحكام القرآن).

ويرى الإمام النووي -رحمه الله تعالى- أن عليه الأمر، وإن كان مخلا بما يأمر به، والنهي وإن كان متلبسا بما ينهى عنه، فإنه يجب عليه شيئان: أن يأمر نفسه وينهاها، ويأمر غيره وينهاه، فإذا أخل بأحدهما فكيف يباح له الإخلال بالآخر !؟

ونقل ابن حجر في الفتح عن بعض أهل العلم أن الأمر بالمعروف يجب ولو كان الآمر متلبسا بالمعصية، لأنه في الجملة يؤجر على الأمر بالمعروف، ولا سيما إن كان مطاعا، وأما إثمه الخاص به فقد يغفره الله له، وقد يؤاخذه به.

وأما من قال: لا يأمر بالمعروف إلا من ليست فيه وصمة، فإن أراد أنه الأولى فجيد، وإلا فيستلزم سد باب الأمر إذا لم يكن هناك غيره (فتح الباري).

ويتحصل مما سبق أن على الآمر والناهي واجبين: أن يأمر نفسه بالمعروف وينهاها عن المنكر، ويأمر غيره وينهاه، فإن أخل بالواجب الأول فلا يسقط عنه الواجب الآخر.

رابعا: تفسير قوله تعالى ﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ (المائدة 107) تفسيرا مناقضا لمبدإ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو مدخل من مداخل الشيطان، ومصيدة من مصايده -كما ذكر الإمام ابن القيم في إغاثة اللهفان-

وقد خطب أبو بكر الصديق رضي الله عنه على منبر رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها في غير موضعها. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» (مجموع الفتاوى لابن تيمية 479/14).

وقد ظهر مثل هذا الفهم زمن ابن مسعود رضي الله عنه وذلك أن رجالا خرجوا من الكوفة ونزلوا قريبا يتعبدون، فبلغ ذلك عبد الله ابن مسعود فأتاهم فقال لهم: ما حملكم على ما صنعتم؟ قالوا: أحببنا أن نخرج من غمار الناس فنتعبد. فقال لهم: لو أن الناس فعلوا مثل ما فعلتهم فمن كان يقاتل العدو؟ ومن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟ فما زال بهم حتى رجعوا.

وإن المسلم في رحلة الدعوة إلى الله عز وجل يجب أن يكون له زاد يستعين به على أمرها.

وهذا الزاد يتلمس في القرآن الكريم، والسنة والسيرة النبوية، وسير السلف الصالح...

ليعلم الداعية إلى الله عز وجل: أن الدعوة إلى الله عز وجل سبيل النجاة في الدنيا والآخرة. وأنها الطريق إلى سلعة الله الغالية «ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة».

- وأن الأجر يقع بمجرد الدعوة ولا يتوقف على الاستجابة.
- ولأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم.
- وأن عين الله عز وجل ترعاه وتكلأه وتحفظه.
- وأنه محفوظ في عقبه إن شاء الله عز وجل لسعيه في الإصلاح.
- وأنه... وأنه ... وأنه...

ولقد ظل النبي ﷺ يتعهد الشخصية المسلمة بالتربية والتوجيه والترشيد إلى أن اكتمل نضجها بكمال الوحي، وتمام النعمة ﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ (المائدة 4).

نسأل الله عز وجل رب العرش العظيم أن يهدينا، ويهدي بنا، ويجعلنا سببا لمن اهتدى، ويجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ونضر الله امرءا قرأ مقالتي فوعاها، وصل اللهم على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

إشراقة

إخفاء الحال عن أعين الرجال

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله، فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل» (رواه أبو داود)، والترمذي وقال : حديث حسن، «يوشك» بكسر الشين: أي يسرع. وفي الأصل قال الترمذي: حسن صحيح غريب.

و«الفاقة» هي ضيق الحال وشدة الحرمان، وهذا الحال لا يزيد المؤمن الصادق إلا رجاء في فضل الله، واعتصاما بسيده ومولاه، فينزل مسألته بالذي برحمته ولطفه يتولاه، وحينها يوشك الله له برزق عاجل أو آجل، وعند أبي داود : «أوشك الله له بالغنى إما بموت عاجل أو غنى عاجل» قال القاوي : «إما بموت عاجل» قيل بموت قريب له غني فيرثه.

أما إذا أظهر للمخلوقين فقره وحاجته، وفضح أمام الناس فاقته وخصاصته بقي في ذل الحال ولم «تسد فاقته» وحتى لو أدرك سدادا من عيش في مقبل الزمان بقي عليه عار التذلل للناس، وقد مدح النبي ﷺ المسكين المتعفف، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له، فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس» (متفق عليه).

وفي رواية : «ليس المسكين الذي ترده الأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي ليس له غنى ويستحي، أو لا يسأل الناس إلحافا»(1) قال القرطبي : المسكين مفعيل من السكون، وهو من عدم المال فسكنت حركاته ووجوه مكاسبه، قال تعالى : ﴿أو مسكينا ذا متربة﴾ أي لا صقا بالتراب.

قال ابن بطال رحمه الله تعالى : فالحديثان مختلفان في المعنى، فالأول : نفى فيه الإلحاف ودل على السؤال، والثاني : نفى فيه السؤال أصلا.. وإنما اختلف الحديثان لاختلاف أحوال السائلين لأن الناس يختلفون في هذا المعنى، فمنهم من يصبر عن السؤال عند الحاجة ويتعفف، ويدافع حاله، وينتظر الفرج من الله تعالى، ومنهم من لا يصبر ويسأل بحسب حاجته وكفايته، ومنهم من يسأل وهو يجد للاستكثار، وهذا هو الملحف الذي لا ينبغي له المسألة.

وإخفاء الحال وإبقاء الأمر في ديوان السر أعظم أجرا.

وعن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، ونحن ستة نفر بيننا بعير نتعقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدمي، وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب على أرجلنا من الخرق، قال أبو بردة: فحدث أبو موسى بهذا الحديث، ثم كره ذلك، وقال: ما كنت أصنع بأن أذكره، قال : كأنه كره أن يكون شيئا من عمله أفشاه. متفق عليه.

قوله : «نقبت» تضررت من المشي جراء الحفاء، ويقال: نَقِبَ البعير إذا ارقَّ خفه.

«وكره أن يكون شيئا من عمله أفشاه» قال النووي رضي الله عنه: فيه استحباب إخفاء الأعمال الصالحة وما يكابده العبد من المشاق في طاعة الله تعالى ولا يظهر شيئا من ذلك إلا لمصلحة مثل بيان حكم ذلك الشيء والتنبيه على الاقتداء به فيه ونحو ذلك، وعلى هذا يحمل ما وجد للسلف من الأخبار بذلك»(2).

قال الغزالي رحمه الله تعالى في أدب الفقير الظاهرة: أن يظهر التعفف والتجمل، ولا يظهر الشكوى والفقر، بل يستر فقره ويستر أنه يستره، قال سفيان أفضل الأعمال التجمل عند المحنة، وقال بعضهم: ستر الفقر من كنوز البر.

---

1 - هذا لفظ البخاري.

2 - النووي شرح مسلم ج 12 ص 169.

ذ. عبد الحميد صدوق

حقيقةُ الغفلة وأسبابُها وعواقبُها

ذ. إدريس اليوبي*

الخطبة الأولى :

عباد الله: يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ (الاعراف: 172)، ويقول جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ () أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يونس:8) .

ويقول عز من قائل:﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾ (الكهف)

إن الله عز وجل قد أوجب علينا ذكره، وأثنى على الذاكرين، وبين لنا محاسن الذكر وفوائده وثمراته، وما دام الإنسان ذاكرا لله فهو في حفظه ورعايته وتحت عنايته.

وإذا لم يكن هذا الإنسان ذاكرا لله مشتغلا به، فهو غافل عن الله منشغل بغيره، فما هي حقيقة الغفلة؟ وما هي عواقبها؟ وكيف يمكننا أن نعالج أنفسنا منها؟.

إن الغفلة داء ووباء أصاب الأمة وأضعفها وقضى عليها، والغفلة في اللغة هي السهو عن الشيء، وقد عرفها أحد العلماء بقوله: الغفلة فَقْدُ الشُّعورِ فيما حَقُّه أن يُشْعَر به، ومعناه: أن ينعدم الإحساس بشيء له وجود في الواقع، فيُغَيَّب ما ينبغي استحضارُه، ويُهْمَل ما يلزم الاعتناء به، ويُبعَد ما ينبغي تقريبه، ولذلك يمكن أن نقول: إن الغفلة لهوٌ وسهوٌ وبعدٌ وشرودٌ، وهكذا فقد يغفُل الإنسان عن نفسه أو أهله أو أي شيء محيط به، فلا يرعى لذلك اهتماما حتى يكثر حوله المعاتبون ويبرز أمامه الناصحون فيستفيق من غفلته ويستيقظ من غفوته ويتدارك الأمر قدر استطاعته، فيعوض ما ضاع، ويتدارك ما فات، ولكن المصيبة العظمى والطامة الكبرى، والخسارة التي لا تُعوَّض هي الغفلة عن الله عموما وما يتفرع عنها من غفلة عن الدين وغفلة عن الموت وغفلة عن اليوم الآخر والبعث، وغفلة عن الوقوف بين يدي الله، وغفلة عن الحساب والعقاب، قال تعالى في شأن قوم فرعون وبيان سبب هلاكهم:﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾، وقال جل وعلا:﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ()أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وقال سبحانه وتعالى:﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ()أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ()لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

فمن مظاهر الغفلة اتباع الهوى:﴿ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه﴾، ومن مظاهر الغفلة إيثار الحياة الدنيا على الآخرة:﴿ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة﴾

ومن صفات أولئك الغافلين كما نصت عليها الآية أنه قد طبع على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم، قال تعالى:﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾

فتجد أحدهم لا يعقل الهدى ولا يسمعه ولا يحب سماعه ولا يراه ولو كان أمامه، لا يستحب مجالس الخير وصحبة الصالحين وإن حضر هذه المجالس خرج منها كما دخل، لا يستجيب لنصيحة ولا يتأثر بموعظة، لأن الطرق التي تدخل منها الموعظة إلى القلب معطلة والقلب غارق في غفلته وسهوه ولهوه، ومن صفات الغافلين أنهم قليلو الذكر لله، جاء في سنن الترمذي عَنْ يُسَيْرَةَ وَكَانَتْ مِنْ الْمُهَاجِرَاتِ قَالَتْ : قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «عَلَيْكُنَّ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّقْدِيسِ وَاعْقِدْنَ بِالْأَنَامِلِ فَإِنَّهُنَّ مَسْئُولَاتٌ مُسْتَنْطَقَاتٌ وَلَا تَغْفُلْنَ فَتَنْسَيْنَ الرَّحْمَةَ»(7)، وليست الغفلة قصراً على الجاهل وغير المتعلم، بل هناك ممن يحملون أكبر الشهادات في علوم الدنيا وهم من الغافلين. أخبر عن ذلك الله تعالى بقوله:﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (8).

عباد الله: إن الغافل عن الله يستهين بمحارم الله ، لأن حاله كما يصفه الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى بقوله: (إن حجاب الهَيْبَة – لله عز وجل- رقيقٌ في قلب الغافل)، وقال أيضا:(على قدر غفلة العبد عن الذكر يكون بعده عن الله)، فالغافل تُقْعِدُه غفلته عن الترقي في مراتب الكمال، يقول ابن القيم في ذلك: (لا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت)، وقال أيضاً: (إن مجالسَ الذكر مجالسُ الملائكة ومجالسَ اللغو والغفلة مجالسُ الشياطين، فليتخير العبدُ أعجبهما إليه وأولاهما به فهو مع أهله في الدنيا والآخرة)، فتصوروا- رحمكم الله- كم من مجالسنا واجتماعاتنا مفعمة بالغفلة، وكم من أعمالنا ومواقفنا وسلوكنا ومعاملاتنا تطبعها الغفلة، في أفراحنا ومسراتنا غافلون، وفي أقراحنا وأحزاننا غافلون، في الضيق والشدة غافلون، وفي المرح والرخاء غافلون، نتمتع بالنعم والمنح ونحن في غفلة، ونجتاز المحن والأزمات ونحن في غفلة، وهكذا نعيش أوقاتنا ونقضي أعمارنا ونحن في غفلة، حتى أصبحت هذه الغفلة تتعدى حدود الأفراد إلى دوائر المؤسسات الإدارية والاقتصادية والإعلامية والتعليمية والثقافية والفنية والسياسية، حيث يكثر الهرج والمرج، واللهو واللغو واللغط، دون استراتيجية في التخطيط ولا تبصر في التنفيذ، ولقد لخص بعض أهل العلم مضار الغفلة في ست نقاط: فهي تجلبُ الشيطانَ وتُسخِط الرحمنَ، وهي تُنزل الهم والغم في القلب وتبعد عنه الفرح وتميت السرور، وهي مدعاة للوسوسة والشكوك، وهي تورث العداوة والبغضاء وتذهب الحياء والوقار بين الناس، وهي تبلد الذهن وتسد أبواب المعرفة، ثم هي تُبعد العبد عن الله وتجره إلى المعاصي.

ولقد لخص بعض أهل العلم مضار الغفلة في ست نقاط: فهي تجلبُ الشيطانَ وتُسخِط الرحمنَ، وهي تُنزل الهم والغم في القلب وتبعد عنه الفرح وتميت السرور، وهي مدعاة للوسوسة والشكوك، وهي تورث العداوة والبغضاء وتذهب الحياء والوقار بين الناس، وهي تبلد الذهن وتسد أبواب المعرفة، ثم هي تُبعد العبد عن الله وتجره إلى المعاصي.

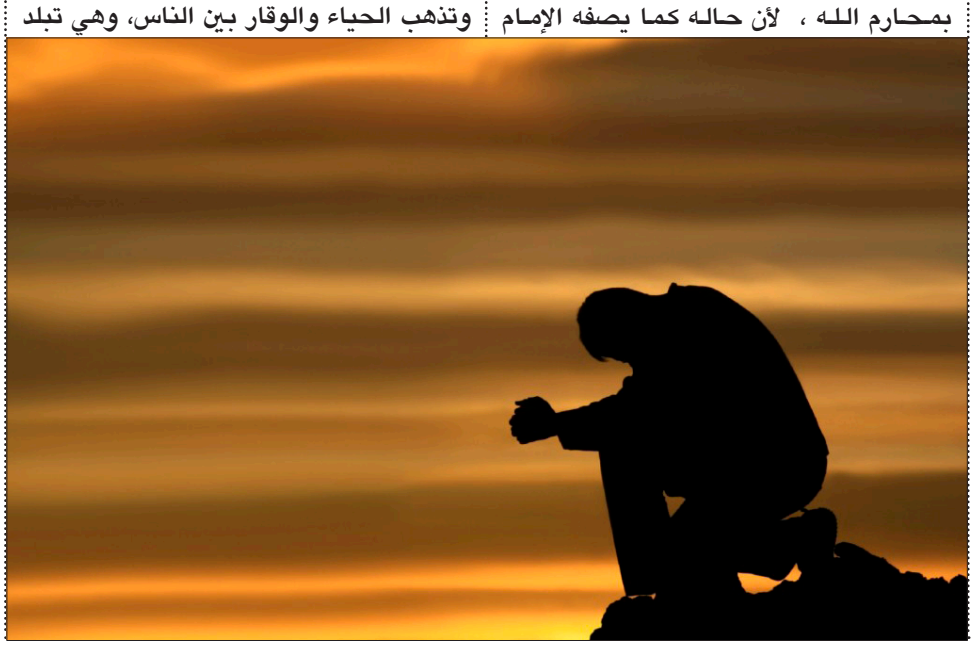

فاللهم إنا نعوذ بك أن نَضِل أو نُضَل، أو نَزِل أو نُزَل، أو نَظلم أو نُظلَم، أو نَجهل أو يُجهَل علينا، واكتبنا اللهم من الذاكرين ولا تجعلنا من الغافلين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية :

أخرج الإمام أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا فَلَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً وَمَا مِنْ رَجُلٍ مَشَى طَرِيقًا فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِ تِرَةً وَمَا مِنْ رَجُلٍ أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِ تِرَةً»، وفي رواية أخرى: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أيضاً قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي مَجْلِسٍ فَتَفَرَّقُوا وَلَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَيُصَلُّوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا كَانَ مَجْلِسُهُمْ تِرَةً عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، والتِّرة هي الحسرة والندامة.

وقال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ» أخرجه البخاري

فعالجوا غفلتكم وأحيوا قلوبكم بذكر الله، وتحينوا الفرص التي قد لا تتطلب منكم تعبا ولا مشقة.

وإليكم بعض التجارب والنماذج التي يمكننا أن نستفيد منها جميعا:

- أحد الصالحين والمجاهدين رحمه الله كان يقيس مسافة السفر بين مدينة وأخرى بعدد أحزاب القرآن، أو بعدد الاستغفار والتسبيح.
- ذكر لي أحد الآباء أنه كان يستغل فرصة إيصال ابنه إلى المدرسة على متن سيارته لتحفيظه ما تيسر من كتاب الله، وأنه يستغل وجوده داخل سيارته لمراجعة ما يحفظ من كتاب الله.
- كما ذكر لي رجل أنه كان كثير السفر والتنقل، كان يتغلب على مشقة السفر بتلاوة القرآن أثناء الطريق حتى إنه في يوم من الأيام قرأ تسعة عشر حزبا خلال مدة زمنية قطع فيها حوالي 450 كلم.
- ولقد استوقفني خلال بداية هذا الأسبوع حال رجل يشتغل حارسا للسيارات، سمعته يتمتم وهو يدلني على إيقاف سيارتي، فلما اقتربت منه علمت أنه يستأنس بتلاوة القرآن.

ألا فلنفعل مثل ما فعل هؤلاء الصالحون، ولنستغل كل فرصة أتيحت لنا في أي وضع أو حال وفي أي زمان أو مكان، قال تعالى:﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار﴾، وقال عز من قائل:﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

فاللهم أدخلنا برحمتك في رحمتك واجعلنا من عبادك الصالحين وجندك المخلصين وأوليائك الذاكرين وأصفيائك الشاكرين.

---

*خطيب مسجد عثمان بن عفان بحي واد فاس بفاس

منزلة الزهد : الجزء الثاني (2)

الإنسان والمال : أيهما يسخر الآخر ؟

فريد الأنصاري رحمه الله تعالى

تناولت الحلقة الأولى من الجزء الثاني من منزلة الزهد موضوع طلب الرزق وكيف أن الإنسان فيه بين تصورين: إيجابي وسلبي وقد توقفنا عند نوع الرزق الذي يجب على المؤمن أن يطلبه وفي هذه الحلقة حديث عن فتنة المال وكيفية تخلص الانسان منها.

إن الرزق من الله تعالى وهو الوحيد الذي يجلب السعادة وإن كان قليلا لأنه يتضاعف أضعافا كثيرة عند الله في الآخرة.

فالمؤمن إذن إذ يرى هذا، يشتغل بما هو مفيد، فإذا حصَّل الكفاية من رزقه، ورزقه الله عز وجل الكفاف والعفاف والغنى عن الناس فإنه يزهد في ما في أيدي الناس فيحبه الناس قال النبي ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس» (حديث حسن رواه ابن ماجة وغيره بأسانيد صحيحة)، بهذا الشكل يكون حينئذ قد ضمن لنفسه السكينة النفسية،

1 - فتنة المال المشغلة عن الله عز وجل:

لا تقود كثرة المال الكاثرة إلا إلى الفتن، حيث يفتتن الناس عن الخلوص لعبادة الله عز وجل، لأن أموالهم شغلتهم بحيث لا يجدون وقتا لتذكر ربهم، وهذه مصيبة كبرى، مالٌ مثل هذا شَرُّه أكثر من نفعه وهو أشبه ما يكون بما قال الله عز وجل في الخمر: ﴿قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ (البقرة 217) كذلك المال الذي يفتن عن عبادة الله يشغلك عن أن تتذكر ربك إذ يناديك أن حي على الصلاة حي على الفلاح. فلا تجد وقتا للاستجابة، ما أنت فيه إذن يسمى فتنة. قال تعالى: ﴿لنفتنهم فيه﴾، فهذا المال يُطغي ويجعل الإنسان خائفا من ذهابه وضياعه ويجد نفسه مقيَّدا بماله، والمال إنما خُلِق ليسخره الإنسانُ لمصالحه، ولم يُخلق ليسخر الإنسانَ لمصالحه، أمران متناقضان: هناك من يُسَيِّرُ المالَ ويديره وهناك من يسيره المالُ، فالذي لا يستطيع أن يتحكم في وقته ولا أن يتفرغ أوقات العبادة لعبادة ربه، ولا أن يرى حتى أطفاله وأبناءه ويسلم عليهم ويكلمهم ويسكن إليهم كما هو مطلوب منه، -الذي لا يجد وقتا لهذا بسبب انشغاله بالمال- هذا موظَّف عند المالِ وليس المالُ هو الموظف عنده، العكس تماما، ولو كان هو مدير الشركة، ولو كان هو رب المعمل فالمعمل سيده حينئذ، وهو ربه، وهو مسيره ومديره، وما ذلك الإنسان إلا عبد لدى مَعمَلِه أو لدى ماله أو لدى ما فتنه عن ذكر الله عز وجل وعن الصلاة.

2 – من هو الزاهد حقا ؟

المؤمن الذي يدير المال هو الذي يستطيع أن يقول للمال حينما يقول الرب حي على الصلاة: قف، ويُغلق باب المال لأنه طُلب منه أن يفتح باب الله ليستقبل ربه ويستقبله ربه، الإنسان الذي يستطيع أن يتصرف هكذا هو الزاهد حقا، ولو كان يملك الملايير من المال فهو زاهد، والزهد ليس هو التعفف، إنما الزهد أن لا يتعلق قلبك بما يفتنك عن ذكر الله وعن إقام الصلاة، وأن تدخل في تناول الطيبات

والمال إنما خُلق ليسخره الإنسانُ لمصالحه، ولم يُخلق ليسخر الإنسانَ لمصالحه، أمران متناقضان: هناك من يُسَيِّرُ المالَ ويديره وهناك من يسيره

من الرزق والحلال متعبِّدا بذلك لله، إذ تكون خادما حينئذ للضروريات الخمس التي جاء بها الإسلام وعلى رأسها الدين أولا، ثم ما تبعها من النفس والعقل والنسل والمال، فكان المال خادما لما سبق إن كان الإنسان يقبض على ميزان الشريعة، متوازنا في سيره إلى الله عز وجل، ويعلم أن دخوله في هذه الحياة الدنيا إنما هو لتسخيرها لممارسة الخلافة العمرانية الكونية لله الواحد القهار، التي حُمِّلها يوم حُمّلها أمانة يسير بها إلى الله عز وجل قويا أمينا، ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا﴾ (الأحزاب 72) ، ظلوما لنفسه إذ تحمل ما لا يطيق، جهولا بقيمة الأمانة وخطرها، ولكنه إن صدق الله حقا وصدقا أعانه عليها فحملها، وإن كان لا يطيقها يسرها الله تعالى له تيسيرا، وقد يُسرت الأمانة للأنبياء والمرسلين وللصالحين عبر التاريخ من هذه الأمة وفي كل زمان وفي كل مكان، فجُوزي الإنسان عن صبره وصدقه وإخلاصه الجزاء الأوفى ولا يكون الجزاء الأوفى إلا رضى الرحمن الملك المنان سبحانه وتعالى، وإنما رضاه أن يسكن العبد حيث يُسكنه الرضى الرباني وهو الجنة، أعلى مقام من الكون وأشرف مكان من الوجود،

3 - حينما يرى الإنسان ما حواليه بعين العابد المفكر :

الحياة سلوك إلى الله جل وعلا، ومن أخذ يسلك إلى ربه لا بد له بأن يجعل هذه الآية نوراً يسلك به الحياة، ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾ (طه 129)، راحة وسكينة تنبعث في النفس، وجمال وهدوء يطبع الإحساس حينما يقرأ الإنسان هذه الآية بقلبه ويرى حينئذ ما يرى حواليه من الأعمال والأموال بعين العابد المفكر في المشروع كيف يخدم به ربه؟، كيف يخدم به دينه؟، لا كيف يوفر وكيف يُكثر، وإن المكثرين في الدنيا هم المقلون يوم القيامة نسأل الله العافية، لا كيف يُكثر وإنما كيف يُسخِّر وهذه مشكلتنا فعلا، لأننا حينما نفكر في المال نفكر كيف نُكثِر، وإنما المؤمن الحق هو الذي يفكر في المال كيف يسخره؟ ما الذي دعاك أن تفكر في المال؟ إنها الحاجة والفقر، تفكر في المال حينئذ، لكن ليس لأنك ترى فلانا وفلانا له وعنده، وأنت ليس لك ولا عندك، وإنما الفقر يُستعاذ بالله منه، وكان من دعاء النبي ﷺ كما روى النسائي في صحيحه: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر ومن الفقر...»، لأنهما صنوان وأخوان. وقد يؤدي أحدهما إلى الآخر والعياذ بالله، لكن الإنسان عليه أن يفكر بعد ذلك وقبله في مال الحياة الدنيا كيف يسخره لعبادة الله، لأن الفقر قد يفتن الإنسان عن عبادة الله، والحاجة قد تفتن الإنسان، فالفقر كاد أن يكون كفرا كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولكن مع ذلك فالفقر حتى وهو كذلك ليس عيباً. ومن الصحابة جمهور غفير كان أفقر من الفقراء، وتعلمون أصحاب الصُّفة من صحابة رسول الله ﷺ فاق عددهم أحيانا السبعين صحابياً كانوا لا يجدون مأوى يأوون إليه من بعد ما هاجروا من مكة إلى المدينة، بعضهم كان من الرقيق، وبعضهم كان من أهل المال ففقد كل ماله وجاء إلى المدينة لا يملك شيئاً، صحيح أن الأنصار آووا ونصروا ولكن العدد كان كثيراً فبقي منهم جمهور غفير يبيت في المسجد النبوي ويظل فيه، فكان أهل الصُّفة فقراء، وكان النبي ﷺ يحبهم ويكرمهم. وما كان ذلك عيباً فيهم إطلاقا فهذا إذن لا ينبغي للمؤمن أن يستقذره ولكن يسأل الله المعافاة والنجاة منه، والفقر أيضا سبب يدفع الفطن الذكي الكيس، -والمؤمن كيس فطن- إلى أن يستثمر طاقة مهمة من الطاقات العبادية التعبدية فيه وهي طاقة الدعاء، لأن الحاجة تلجئ العبد الصالح إلى الله، وإنما يلجأ إلى ربه المحتاج، ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾ (النمل 64)، -سبحانه وتعالى-، فالفقير يملك دافعا حقيقيا وواقعيا ووجدانيا أيضا لينخرط في الدعاء لا يفتر، يدعو الله صباح مساء، ويكون صوته حينئذ سلسلة من نور متصلة بالسماء لا تنقطع، وصوته تشهده الملائكة سماعاً، لأن الملائكة تشهد دعاء الصالحين والفقراء والمحتاجين، فيعينون ذلك العبد بالدعاء هم أيضا لله أن يكشف الغم عن فلان وأن يفرج الكرب عن فلان، ويكون الدعاء حينئذ مخ العبادة كما في رواية وفي رواية أصح «الدعاء هو العبادة»، (هو) التي تفيد التوكيد مع (أل) (العبادة) التي تفيد الاستغراق نتيجة ذلك كله: أن العبادة الحقة أن يكون العبد دائم الدعاء دائم الطلب لله على كل حال لا يفتر...

يتبـــع

منزلة الزهد من حلقات منازل الإيمان التي ألقيت بالجامع الأعظم بمكناس وهي مادة مسجلة على شريط سمعي.

أعدها للنشر : عبد الحميد الرازي

المحافظة على البيئة وأبعادهاالمقاصدية

ذ. صهيب مصباح

- تمهيد :

جاءت الشريعة الإسلامية لحفظ مصالح الناس ودرء مفاسدهم على نطاق واسع يشمل حياتهم الشخصية والاجتماعية، الزمانية والمكانية، ومما أولته الشريعة الإسلامية بالعناية موضوع الوسط البيئي الذي يعمره الإنسان، ولما كان قوام الذات الإنسانية متوقف على استقامة المحيط الذي تعيش فيه، فقد أحاط الشرع الحنيف هذا المحيط بمجموعة من التدابير الكفيلة بتأمين إقامة سليمة تهيئ للإنسان الجو الملائم للاستخلاف.

وإن مما تداولته ألسنة أهل الأصول والفروع، عبارة الإمام أبي حامد الغزالي505هـ في المستصفى: «ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم. فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة، ودفعها مصلحة» (1).

هذه هي الثوابت الإسلامية التي ينبغي على المسلم أن يراعيها في نفسه وأن يتعهدها في حياته العامة والخاصة، فهي المقاصد الكلية التي اتفقت عليها الشرائع السماوية، وأكدت عليها الشريعة الإسلامية، إنها مقاصد تمتاز بربانية المصدر، وعمومية الموضوع، وتتصف بالإتقان والإحكام والكمال، وتراعي حاجات الإنسان المادية والمعنوية التي جبل عليها: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (2). ولذلك وصفها الإمام أبو اسحاق الشاطبي790هـ بقوله: «لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين» (3).

- البيئة وحفظ الدين :

يتصدر المقاصد الخمسة حفظ الدين، ويعنون بذلك حفظه بإقامة أركانه المجمع عليها، وترك المحرمات المتفق على حرمتها، وحفظ الدين على هذا الوجه يرتبط ارتباطاً وثيقاً برعاية عناصر البيئة التي خلقها الله وسخرها لنفع عباده وأراد لها الاستمرار، وحذر من الاعتداء عليها أو محاولة إفنائها، فقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ (4). فإذا قام الإنسان بشكر الله على ما أنعم زاده الله من الخير في الدنيا والآخرة، وإذا طغى وبغى وأفسد محق الله بركات عمله : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(5) وشكر النعمة هو استخدامها فيما خلقت له، والحفاظ على توازنها، والحذر من إفسادها أو تغيير طبيعتها، قال تعالى:﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (6).

وعلى هذا يكون حفظ البيئة من حفظ الدين، لأنها مما أمر به الشرع الحكيم بالحفظ والرعاية والصيانة، ومن جهة أخرى فإن حفظ الوسَط البيئي أساسي لضمان تدين سليم للإنسان، لأن العبد لا يقوى على تفعيل مبادئ الدين أمرا ونهيا، إذا انخرم نظام الحياة على البسيطة، وتعرضت الإنسانية للهلاك، بسبب فقد الاعتدال البيئي الذي يضمن للحياة قوامها.

- البيئة وحفظ النفس :

عنيت الشريعة بحفظ الأنفس، وذلك بتحريم الاعتداء عليها مباشرة أو تسبباً، وتجنب كل ما من شأنه إيقاع الضرر بها، ذلك أن حق الحياة في الإسلام هبة من الله تعالى، ولا يجوز المساس به، ويجب على الأمة ككل، وعلى كل فرد، رعاية الأنفس وصيانتها وتوفير البيئة الصحية الملائمة لها، قال تعالى:﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (7).

وقد كثرت في عصرنا الراهن الكوارث البيئية التي تؤدي إلى هلاك الأنفس، على اختلاف أنواعها وتباين مصادرها، وهو ما يتحدث عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (8).

- البيئة وحفظ العقل :

أما حفظ العقل، فلأنه مناط التكليف، ويَحرُم كل ما من شأنه إدخال الخلل عليه، وهذا يرتبط ارتباطاً وثيقاً برعاية البيئة والحفاظ على نقائها؛ فقد ثبت علمياً، أن التلوث الإشعاعي والتلوث الصوتي لهما أثر خطير ومباشر على خلايا المخ، وقد يبكر في الإصابة ببعض الأمراض الذهنية مثل الزهايمر. «فمن حفظ البيئة أن نحافظ على التفكير السوي في الإنسان الذي يوازن بين اليوم والغد، وبين المصالح والمفاسد، وبين المتعة والواجب، وبين القوة والحق، ولا يتعامل مع البيئة تعامل المخمور السكران، أو المخدر التائه، الذي ألغى عقله باختياره، فلم يعد يعرف ما ينفعه مما يضره » (9).

فمراعاة ضرورة الحفاظ على العقل تقتضي العناية بما يحيط به معنى وحسا، ولما كان التلوث البيئي مما يؤدي إلى الإخلال بنظام التعقل عند الإنسان، كان من الضروري الحفاظ على البيئة من عوامل التلوث، ذلك لأن الوسائل تعطى حكم المقاصد، فكل ما يساهم في الحفاظ على ضرورة العقل يجب الأخذ به.

- البيئة وحفظ النسل :

وحفظ النسل يتضمن المحافظة على الفروج والأعراض وصحة الأنساب، ويواجه هذا المقصد الضروري تحدياً سافراً من المفسدين في الأرض وملوثي البيئة التي فطر الله الناس عليها؛ فالعبث بالجينات الوراثية، وتجارب الاستنساخ البشري، وإباحة الزواج المثلي ونحو ذلك يعد تحدياً خطيراً للتوازن البيئي، وقد اعتبر القرآن الكريم قوم لوط من المفسدين في الأرض لتغييرهم فطرة الله في الخلق، فقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (10).

وقد كثرت في عصرنا الراهن الكوارث البيئية التي تؤدي إلى هلاك الأنفس، على اختلاف أنواعها وتباين مصادرها، وهو ما يتحدث عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (8).

- البيئة وحفظ العقل :

أما حفظ العقل، فلأنه مناط التكليف، ويَحرُم كل ما من شأنه إدخال الخلل عليه، وهذا يرتبط ارتباطاً وثيقاً برعاية البيئة والحفاظ على نقائها؛ فقد ثبت علمياً، أن التلوث الإشعاعي والتلوث الصوتي لهما أثر خطير ومباشر على خلايا المخ، وقد يبكر في الإصابة ببعض الأمراض الذهنية مثل الزهايمر. «فمن حفظ البيئة أن نحافظ على التفكير السوي في الإنسان الذي يوازن بين اليوم والغد، وبين المصالح والمفاسد، وبين المتعة والواجب، وبين القوة والحق، ولا يتعامل مع البيئة تعامل المخمور السكران، أو المخدر التائه، الذي ألغى عقله باختياره، فلم يعد يعرف ما ينفعه مما يضره » (9).

فمراعاة ضرورة الحفاظ على العقل تقتضي العناية بما يحيط به معنى وحسا، ولما كان التلوث البيئي مما يؤدي إلى الإخلال بنظام التعقل عند الإنسان، كان من الضروري الحفاظ على البيئة من عوامل التلوث، ذلك لأن الوسائل تعطى حكم المقاصد، فكل ما يساهم في الحفاظ على ضرورة العقل يجب الأخذ به.

- البيئة وحفظ النسل :

وحفظ النسل يتضمن المحافظة على الفروج والأعراض وصحة الأنساب، ويواجه هذا المقصد الضروري تحدياً سافراً من المفسدين في الأرض وملوثي البيئة التي فطر الله الناس عليها؛ فالعبث بالجينات الوراثية، وتجارب الاستنساخ البشري، وإباحة الزواج المثلي ونحو ذلك يعد تحدياً خطيراً للتوازن البيئي، وقد اعتبر القرآن الكريم قوم لوط من المفسدين في الأرض لتغييرهم فطرة الله في الخلق، فقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (10).

ومن هنا يظهر أن البيئة في المنظور الإسلامي تحمل مدلولا واسعا، يشمل الإنسان بمختلف أجناسه والمكان بمختلف مكوناته الحية والجامدة، المحسوسة وغيرها، فالمحافظة على البيئة محافظة على قوانين الطبيعة التي تضمن توازنها، ومحافظة على نظام العلاقات الإنسانية الذي يضمن للإنسان إنسانيته.

- البيئة وحفظ المال :

وحفظ المال مقصد يحتاج إلى وقفة متأنية لعلاقته الوطيدة برعاية البيئة والحفاظ على مقدراتها؛ فالمسلم مكلف شرعاً بالسعي لكسب المال الحلال من طرقه المشروعة، وإنفاقه على نفسه وأهله دون سرف أو إقتار، وأداء حقه الشرعي في مصارفه المقررة، ولا يجوز له أن يأكل مال غيره إلا بوجه مشروع ورضى من صاحبه.

ولفظ المال يطلق على كل ما له قيمة: كالأرض والمتاع والحيوان والشجر والنقد ونحو ذلك، كما يطلق على ما يمكن أن يصير منتفعاً به، كالسمك في الماء، والطير في الهواء، والحيوان غير المستأنس، وما يمكن حيازته وتعبئته وضغطه من الماء والهواء والضوء وغير ذلك.

وقد وجه الإسلام إلى استعمال ما خلقه الله في الكون استعمالاً متوازناً بدون تقتير ولا إسراف؛ حتى لا يكون هناك اعتداء على حقوق أجيال المستقبل، واستنزاف لبعض الموارد الطبيعية المكونة للبيئة، فقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (11)، وقال أيضا: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (12). وحفظ البيئة يوجب علينا أن نحافظ على المال بكل أجناسه وأنواعه،فنحافظ على موارده فلا نتلفها بالسفه، ونستنزفها بلا ضرورة ولا حاجة معتبرة، ولا نحسن تنميتها ولا صيانتها، فنتعرض للهلاك والضياع، ولا نسرف في استخدامها، فنضيعها قبل الأوان(13).

وعليه فإن ضرورة حفظ المال تستدعي ضرورة الحفاظ على البيئة ومكوناتها، ذلك لأن المال متوقف على خيرات البيئة، وأي خلل في منظومة البيئة يعد خللا في الاقتصاد، مما يعني أن البيئة ظرف للمال، فإذا انخرم هذا الظرف، صار المال غير مظروف، وهو ما يؤدي إلى إتلافه وإهداره.

ومما تقدم نقول: إن مقاصد الشريعة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحماية البيئة الاستنزاف أو ما تنبه إليه جاء في والحفاظ عليها من التلف أو الفساد، وهذا علماؤنا الأوائل؛ فقد تفسير أبي حيان عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾(14) قوله: «هذا نهي عن إيقاع الفساد في الأرض، وإدخال ماهيته في الوجود، فيتعلق بجميع أنواعه من إيقاع الفساد في الأرض: إفساد النفوس والأنساب والأموال والعقول والأديان»(15).

ومن هنا يتبين أن الضروريات الخمس التي يقوم عليها الوجود الإنساني، متوقف تحقيقها على حماية البيئة، لما علمت من أن علاقة البيئة بالإنسان علاقة كلية لا تقبل الانفكاك بحال، وأن أي خرم في توازن قوى البيئة خرم في ضروري من ضروريات الإنسان، مما يعني فقد الإنسان لإنسانيته المتكاملة.

(1)المستصفى، 174/1، دار الكتب العلمية.
(2) سورة الروم الآية 30.
(3)الموافقات في أصول الشريعة 18/2، دار ابن عفان.
(4) سورة الأنعام الآية 38.
(5) سورة إبراهيم الآية 7.
(6) سورة الروم الآية 41.
(7) سورة المائدة الآية 32.
(8) سورة الروم الآية 41.
(9)رعاية البيئة في شريعة الإسلام، يوسف القرضاوي، ص51.
(10) سورة العنكبوت: 28-30.
(11) سورة الأعراف الآية 31.
(12) سورة الإسراء الآية 29.
(13)رعاية البيئة في الشريعة الإسلامية، ص51.
(14) سورة الأعراف الآية 56.
(15)البحر المحيط 314/4 دار الفكر.

الشيخ رشيد رضا وأثره في البعث الإسلامي المعاصر

د. الطيب الوزاني

- أولا: تمهيد في السياق التاريخي:

الحديث عن رشيد رضا رحمه يقتضي وضعه أولا في سياقه الزمني والفكري وحركة البعث الإسلامي المعاصر ، ذلك أن المناخ الذي يعيش فيه أي علم من الأعلام يكون له أثر ما في ذلك العلم كما أن العالم والمفكر لا يخرج من الدنيا إلى الآخرة إلا بعد أن يترك آثارا ما على مناخ عصره فكرا واجتماعا.

والمناخ الذي وجد فيد الشيخ رضا هو مناخ القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين/ التاسع عشر والعشرين الميلاديين وهما قرنان شهدت فيهما الأمة أحداث جساما، يمكن تلخيصها في ما يلي :

● الضعف العام الذي آلت إليه الأمة الإسلامية اجتماعيا وسياسيا وفكريا وعلميا واقتصاديا؛ فمن الناحية الاجتماعية عانت الأمة من هيمنة عادات وتقاليد تقوم على التواكل والكسل والسحر والشعوذة ، وفي مجال الفكر قل الإبداع وسادت نزعة التقليد وانتشر الفكر الصوفي في مظاهره السلبية والإرجاء، وفي المجال السياسي ضعف الدويلات الإسلامية والتفرقة والعصبية وضعف الاحتكام إلى الشرع ، وفي المجال العلمي الصرف خفت نجم العلوم الطبية والطبيعية والكيميائية وضعفت الصناعة وقل التطوير أو انعدم.

● الضعف العام للخلافة العثمانية الذي انتهى بإلغائها سنة 1924 على يد كمال أتاتورك المشبع بروح العلمانية الحديثة، تلك الخلافة أنهكتها الحروب مع روسيا واوروبا،كما انهكتها الحركات القومية في الشام ومصر وتركيا ، إلى جانب تغلغل النفوذ الفرنسي والإنجليزي في المنطقة الإسلامية وتأثيره مما أدى إلى سقوط العالم الإسلامي (سواء الذي هو تحت حكم العثمانيين أو المستقل عنه) في القبضة الاستعمارية الفرنسية والإنجليزية أساسا واستقلال كثير من المناطق واقتطاعها من الدولة العثمانية التي أطلق عليها اسم «الرجل المريض».

● ظهور حركات قومية للمطالبة بالاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية.

● ظهور حركة البعث والإحياء في أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي داخل الخلافة العثمانية، وفي مصر والشام، والجزيرة العربية، والهند وإيران، وفي الغرب الإسلامي. وهي حركة تباينت منطقاتها وأهدافها منذ البداية بين قطبين متجاذبين؛ قطب علماني يرمي إلى تحقيق نهضة الأمة الإسلامية على غرار ما تم في أوروبا، وذلك بتحديث المجتمع ماديا أولا ثم ثقافيا وسياسيا بنقل التجربة الأوروبية في الإصلاح السياسي (الديمقراطية والعلمانية)، والإصلاح الفكري والتعليمي وما يتبعه من إصلاح اجتماعي وقضائي بتبني المذاهب الفكرية الغربية، وقطب إسلامي يرمي مشروعه إلى إحياء الأمة وفق أصولها الفكرية ومقوماتها الحضارية الإسلامية ، وانطلاقا من الوحي واستثمار الإبداعات المشرقة في التراث الإسلامي مع الانفتاح على الحضارة الأوروبية بما يخدم ولا يهدم.

في هذا المناخ المعقد والمترابط سياسيا وفكريا واجتماعيا ، محليا ودوليا، حاضرا وماضيا ومستقبلا ولد الشيخ محمد رشيد رضا، فمن هو هذا الرجل؟ وكيف تحول من رجل صنعه زمانُه إلى رجل صنع زمانَه؟ وكيف انخلع من سلطة واقعه ليكون هو نفسُه سلطةً على واقعه؟

- ثانيا : رشيد رضا من مولود بين الرجال إلى رجل معدود في الرجال ومُعِد للرجال:

ولد رشيد رضا رحمه الله تعالى (1282- 1354 هـ/ 1865 - 1935 م) في القلمون (من أعمال طرابلس الشام) وتعلم فيها وفي طرابلس. ونشأ نشأة صالحة وتلقى تربية صوفية في ابتداء حياته ساعدته أن يتعرف على هذا الوسط وينتقد أخطاءه ، وكان على قدر عال من الذكاء والفطنة والشجاعة وتمكن من علوم العربية وعلوم الشرع وعلوم العصر وعندما رحل إلى مصر سنة 1315هـ تعرف على الشيخ محمد عبده تلميذ الأفغاني وتتلمذ عليه ،كما تعرف على كثير من زعماء الإصلاح في مصر والشام وعاش مخاض حركة الإصلاح والإحياء الإسلامي في مصر والشام والدولة العثمانية وانخرط في مشروعها حتى صار من كبار أقطابها، وتفاعل مع أحداث الأمة في وقتها المحلية منها والدولية، فأسس مع أستاذه محمد عبده مجلة المنار التي كانت فعلا منارا، وجعلها قناة لنشر أفكار حركة الإصلاح والجهاد العلمي وقد أصدر منها 34 مجلدا، وقد قال عنها الدكتور محمد فتحي عثمان إنها «كانت منبراً للدعوة إلى تصحيح العقيدة والتزام تعاليم الشريعة الصحيحة، وشنت على البدع والخرافات والتقليد والتعصب للمذهب حرباً لا هوادة فيها ولا مداراة»(1) وسعيا للتعرف على حالة العالم الإسلامي وإصلاح أوضاعه زار كثيرا من المناطق الإسلامية كالهند والحجاز وأوربا والتقى بكثير من أعلام العصر. وكان رحمه الله تعالى ذا قلم أدبي وعلمي سيال، وذا روح إسلامية قوية غيرة وإيمانا وعملا.

كما أنشأ مدرسة الدعوة والإرشاد لتخريج العلماء والمفكرين والخطباء والدعاة المقتدرين على التفاعل مع قضايا الأمة تفاعلا إيجابيا، وقد كان لها أثر إيجابي في هذا المجال.

وانتهى به المطاف للاستقرار بمصر إلى أن توفي فجأة في (سيارة) كان راجعا بها من السويس إلى القاهرة، ودفن بها سنة 1354هـ.

وقد كانت حياته رحمه الله تعالى مليئة بالعمل والحركة تفكيرا وتعبيرا وتدبيرا.

- ثالثا : معالم من فكره :

يعتبر رشيد رضا واحد من رجال الإصلاح الإسلامي وواحدا من رجال مدرسة المنار التي تكونت من الأستاذ جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده ثم رشيد رضا، وقد قال محمد الغزالي رحمه الله تعالى عنهم: «إن الرجال الثلاثة : جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا هم قادة الفكر الواعي الذكي في القرن الأخير»(2).

وقد تأسس فكر مدرسة المنار عموما وفكر رشيد رضا خصوصا على مجموعة قواعد وأسس كانت في عمومها مبادئ حركة البعث والإحياء والإصلاح والتجديد في العالم الإسلامي ومنها:

● تحليل واقع الأمة الإسلامية والكشف عن علله وأمراضه العقدية والسياسية والفكرية والاجتماعية واقتراح الحلول والأعمال المساعدة على تجاوز هذه المعضلات.

● الدعوة إلى عودة الأمة إلى العمل بالقرآن والسنة ، وتحكيمهما وجعلهما المصدر الأول للتلقي والاهتداء ، يقول الدكتور الشاهد البوشيخي عن أعلام المدرسة الثلاثة: «كلهم حصر الإشكال في ابتعاد الأمة عن القرآن الكريم فهما وعملا، وكلهم حصر الحل في فهم القرآن والعمل به على الوجه الصحيح كما كان الأمر أول مرة، لأن «المقصد الحقيقي... هو الاهتداء بالقرآن»»(3).

● مقاومة المشروع التغريبي الأوروبي الذي كان يعمل منذ البداية لعزل الشريعة عن الحياة وإبعاد الأمة عن قرآنها، وتغريب العقل المسلم وقد تضمنت مجلة المنار وتفسير المنار كثيرا من القضايا التي عالجت المذاهب الغربية ومفاهيمها وأهدافها والقائمين عليها في بلداننا.

● الدعوة إلى إحياء فقه السنن الإلهية الكونية والإنسانية لكونها الكفيلة بتحقيق نهضة الأمة وانبعاثها من وهدتها إلى الشهود على الناس وقد وقف الشيخ رشيد رضا وأستاذه محمد عبد كثيرا على الآيات القرآنية التي تنبه إلى سنن الله في الصالحين وفي الظالمين ومقارنة أحوال المسلمين اليوم بها، وقد جعل الشيخ رشيد رضا العلم بالسنن الإلهية معينا على فهم القرآن الكريم وتقويم حركة المسلمين.

- رابعا : آثاره في البعث الإسلامي المعاصر :

كان من آثار الشيخ رشيد رضا ومدرسة المنار خاصة غرس الوعي لدى أبناء الأمة الإسلامية بضرورة إحياء الذات وبناء المشروع الإسلامي المعاصر انطلاقا من القرآن الكريم والسنة النبوية وتجربة الأمة مع الاستفادة المضبوطة بضوابطها الشرعية من العلوم المعاصرة، وما عرفه العالم الإسلامي من صحوة يرجع في غالبه إلى جهود رشيد رضا وأضرابه ، ويمكن رصد هذه الآثار في ما يلي:

● تخريج جيل من المصلحين: أمثال الشيخ حسن البنا والشيخ محمد الإبراهيمي والشيخ عبد الحميد بن باديس، وغيرهم كثير مشرقا ومغربا. ويدل على ذلك التجاوب الكبير التي تلقته مجلة المنار ، والقبول والإقبال اللذان حظي بهما تفسير المنار.

● تجديد الفكر وتوسيع دائرة الإصلاحات: ذلك أن كل المصلحين الذين جاءوا بعد رشيد رضا تلقفوا دعوته للإصلاح وعملوا بها في مجالات التعليم والدعوة والفكر والمجتمع حيث اهتم الشيخ رشيد رضا برد الشبهات والرد على الفرق الضالة والمنحرفة وبيان الفكرة الإسلامية في بناء الإنسان والمجتمع وتناول قضايا اجتماعية وسياسية وفكرية واقتصادية وتعليمية وتربوية. وتعكس مجلة المنار في أبوابها وقضاياها وموضوعاتها هذا الأمر بوضوح.

● تجديد المنهج في فهم كتاب الله جل وعلا وتجديد التدين في الأمة وتجديد منهج بعثتها والتركيز على قضايا من شأنها إصلاح المجتمع من قبيل مقاصد القرآن الكريم وإعجازه والسنن الإلهية والتفسير الموضوعي ومنهج الدعوة.

ويلخص الأستاذ الدكتور الشاهد البوشيخي نتائج مدرسة المنار في الأمة في جوانب ثلاثة:

1- تخليص المصطلح القرآني من كثير من الشوائب التي علقت به عبر القرون...

2- تعبيد الطريق إلى إصلاح واقع الأمة بالقرآن ...

3- إعادة القرآن الكريم إلى مركزيته في الإصلاح، هذه أمّ النتائج وأفضل الفضائل؛ نحن أمة أخرجت من كتاب، وصنعت بكتاب، وقبل الكتاب لم يكن يحسب لها أي حساب،.. إننا ما دخلنا التاريخ بمنهج فلان أو فلان، ولكننا دخلنا التاريخ بهداية القرآن»(4)

ـ خامسا : مؤلفاته وآثاره :

ترك الشيخ رشيد رضا ثروة علمية زاخرة منها :

- **مجلة «المنار» وقد أصدر منها 34 مجلدا.**
- **تفسير القرآن ـ في 12 مجلدا.**
- **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ عبده في ثلاثة أجزاء.**
- **نداء للجنس اللطيف.**
- **الوحي المحمدي.**
- **يسر الإسلام وأصول التشريع العام.**
- **الخلافة.**
- **الوهابيون والحجاز.**
- **محاورات المصلح والمقلد.**
- **شبهات النصارى وحجج الإسلام.**

هذا وقد ألف الأمير شكيب أرسلان كتابا في سيرة الشيخ محمد رشيد رضا سماه « السيد رشيد رضا ، أو إخاء أربعين سنة» ذكر فيه مناقب هذا الرجل وأعماله وجهاده العلمي والتعليمي والتربوي.

وختاما يمكن القول : إن رشيد رضا وإن كان تلميذا لمدرسة المنار فإن هذه المدرسة لا تذكر إلا ويذكر معها هذا العالم الذي أضفى على المدرسة مسحة خاصة ونفسا جديدا ولقد أحيا الأمة ببث الوعي وتجديد تدينها عبر مجلة المنار والعمل الصحفي، وعبر العمل الجمعوي والتعليم «جمعية الدعوة والإرشاد»، فرحم الله هذا الرجل الذي كان حقا هو وأقرانه رواحل حقيقية في القرن الرابع عشر الهجري ولم يرحلوا حتى خلفوا من بعدهم الرواحل أيضا.

---

1 – السلفية في المجتمعات المعاصرة. د. محمد فتحي عثمان، الكويت: دار القلم، 1993م، ص86.81.

2 – علل وأدوية : محمد الغزالي ، 122/1 ، ط/أخبار اليوم

3 – دراسات مصطلحية : أ.د. الشاهد البوشيخي، ط. 1. 1433هـ / 2012، دار السلام ، مصر، ص.111

4 – نفسه

من أجل منهاج قرآني تجديدي في الفكر والعلوم الإسلامية (رؤية منهجية) 1

د. سعيد شبار

يضم هذا البحث بالإضافة إلى التوطئة والخاتمة خمس نقاط وهي:
- الإشكال تاريخي أولا .
- في الحاجة إلى استئناف تجديدي شامل في العلوم الإسلامية وبناء أصول فكرية مستوعبة.
- في تحديات الجبهة الخارجية.
- قضايا معاصرة أمام الفكر الإسلامي.
- في معالم المنهاج القرآني البنائي للفكر والعلوم.

سنعرض في هذا العدد النقطتين الأوليين منها، على أن نعرض في العدد القادم إن شاء الله النقاط الثلاثة الأخيرة.

توطئة:

لا شك أن للعلوم، كل العلوم، غايات ومقاصد، تحقق الرؤى والفلسفات الكامنة وراءها والمؤطرة لها. والعلوم الإسلامية لا تشد عن هذا الاطراد. بل هي أكثر العلوم، إطلاقا، ارتباطا بالغائية والمقصدية لارتباطها بالدين. وأعتقد أن غايات ومقاصد العلوم الإسلامية ثلاث كليات لا تكاد تخرج عنها:

أن تحقق الهداية والصلة بالله تعالى.

أن تخرج الإنسان المستخلف الحامل للرسالة.

أن تبني مجتمعها وتسهم في إعمار الكون من حولها.

وهذا الذي فعله الإسلام في صدره الأول، حيث كانت هذه الأهداف مجتمعة غير منفصلة ومتكاملة غير متقابلة، تشكل دوافع الإنسان للبذل والعطاء والبناء، وتوجه علوم وثقافة الأمة في بنائها الذاتي أو في ساحة التدافع والتعارف الكوني.

لكن الناظر إلى حال هذه العلوم، راهنا وتاريخيا، يجد أنها لا تكاد تحقق واحدة من تلك الغايات والمقاصد، فكيف بها مجتمعة. وهذا ما يطرح تساؤلا حول مادة هذه العلوم نفسها، التي تحتاج إلى إعادة بناء أو استئناف من داخل الأصول المؤسسة لا من خارجها. فهناك أصول تؤسس المعرفة باعتبارها أساسات ومنطلقات ذات قدرة استيعابية كبيرة لخاصية الإطلاق فيها وهذا لا يكون إلا للوحي. ثم هناك أصول أسستها المعرفة في صيرورتها التاريخية كان من المفترض أن تخضع لتجديدات وبناءات مستأنفة لخاصية النسبية فيها وهذا شأن كل إنجاز بشري. لكن للأسف، تاريخيا، كان الاشتغال بما أسسته المعرفة لا بما يؤسسها. ثم في منظومة الإسلام التوحيدية الموحدة لا يمكن لتلك الغايات أن تنفصل عن بعضها أو تستقل وإلا اختل النظام كله وتعذر الإنجاز، وكنا كما نحن الآن، أمام تحيزات ونزعات لا أمام معرفة متحققة بشروط وجودها، الغائية والاستخلافية والإنسانية.

لذا، فالحاجة داعية إذن إلى النظر المنهجي الكلي إلى هذه العلوم من زاوية منطلقاتها وأصولها، ومن زاوية أهدافها وغاياتها، ما تحقق منها وكيف؟ وما لم يتحقق منها ولم؟ وهذا الذي نروم تقريبه من خلال هذه المعالجة المنهجية السريعة.

1 - الإشكال تاريخي أولا :

ذكر السيوطي في كتابه «تاريخ الخلفاء» عن الحسن البصري، قوله بأن أصول الانحراف في الأمة، أصلان كبيران. أما الأول فهو طروء أو ظهور فرقة الخوارج، أما الثاني فهو فساد نظام الحكم. ولا يخفى أن العلة الأولى هي إشارة إلى الانحراف الفكري التصوري سواء في جانبه العملي (استباحة دم المخالفين) أو في جانبه العقدي (تكفير مرتكب الكبيرة، الحاكمية لله)، حيث كانت فرقة الخوارج من أوليات الفرق التي نظمت مقولاتها في أطر منهجية عملية وعقدية تصورية ثابتة وقارة، وخاضت من أجلها معارك وحروبا.

ثم إن الإشارة إلى هذه الفرقة، بقدر ما هي إشارة إليها بالذات، هي إشارة كذلك بالتبع، أي لما تلاها وتبعها من فرق تعددت وتفرعت وانقسمت بالشكل الذي تمزقت به وحدة الأمة في أسسها العقدية كما في تجلياتها العملية. خاصة إذا أضفنا إلى هذا، انقلاب وظيفة الكلام من الدفاع إلى الاحتراب الداخلي في قضايا الغيب والعقيدة التوقيفية. وكونه تزامن مع ركود وجمود مماثل شمل الجانب الفقهي (في إطار المذاهب) بعد انتهاء مرحلة الأئمة المؤسسين.

ولنقل إن هذا الطابع العام الذي وجه فكر الأمة وثقافتها، وفيه تقررت علوم ومفاهيم، وتأسست تصورات وأفكار، تخص قضايا المسلمين في مجتمعاتهم وعلاقاتهم الداخلية، كما تحدد تصوراتهم وعلاقاتهم بالآخر الأجنبي عنهم. هذا دون أن نغمط الاستثناءات التجديدية حقها، على المستوى الفكري العام أو المتخصص، بدءا بالإمام الشافعي نفسه وليس انتهاء بالسيوطي كما زعم، والتي ما يزال معظمها في حيز الكمون دون الاستثمار اللازم.

أما الإشارة الثانية فمتعلقة بفساد نظام الحكم وانحرافه عن المنهج الشوري وغلبة مظاهر الاستبداد والجور عليه. وليس غرضنا تتبع هذا الجانب وإن كان لا يخرج عن كونه قضية من القضايا الفكرية في الأمة كذلك.

فهذه جبهة الذات، حيث نمت وترعرعت العلوم الشرعية قاطبة، وحيث عرفت في مجملها دورانا محليا دون استئناف تجديدي يؤهلها للمواكبة. وإذا كان الأصل في هذه العلوم أن تكون تابعة للوحي الخالد تتجدد بتجديد النظر فيه، والكشف عن جوانب من مكنونه، فإن الإشكال الكبير الذي وقعت في أَسْره إلى الآن، أنها استقرت على أسس تاريخية (مذهبية وفرقية وحزبية طائفية..) أكثر منها شرعية، وأضحت متبوعة باعتبارها أصولا ثابتة لا تتغير. فأخذت بالممارسة التاريخية من صفات الوحي ما لا يجوز إلا للوحي، وتصدرت مكانه وأمسى الوحي تاليا لها في الرتبة والاعتبار شاهدا لها لا عليها. ولهذا نحن، في الغالب الأعم، لا نَدْرس ولا نُدَرِّس في جامعاتنا من القرآن إلا علوما تاريخية، ولا من السنن إلا فنونا منهجية، ولا من الفقه إلا تاريخه، ولا من الفكر والعقيدة إلا تاريخهما، حتى إنه ليصح أن يقال: إننا كائنات تاريخية تراثية، ولسنا كائنات لها تاريخ وتراث تأخذ منه وتذر. أما فقه القرآن والسنة نصا لتحقيق الكسب الفكري والمعرفي الراهن والمواكب لقضايا الإنسان المعاصر بما يجسد فعلا استيعاب رسالة الختم للزمان والمكان، فهذا الغائب الأكبر، ليس في مناهج ومقررات الدراسة فحسب، بل في اهتمامات رجال الفكر والعلم والإصلاح كذلك.

> نحن، في الغالب الأعم، لا نَدْرس ولا نُدَرِّس في جامعاتنا من القرآن إلا علوما تاريخية، ولا من السنن إلا فنونا منهجية، ولا من الفقه إلا تاريخه، ولا من الفكر والعقيدة إلا تاريخهما، حتى إنه ليصح أن يقال: إننا كائنات تاريخية تراثية ولسنا كائنات لها تاريخ وتراث تأخذ منه وتذر.

لذا تحتاج هذه الجبهة إلى عمل يعيد للأصول والمصادر ترتيبها العادي، تجعل القداسة للوحي المهيمن والمصدق وتنزعها عن الفكر البشري. تمارس بالقرآن وصحيح السنة على التراث الفكري الإسلامي ما مارسه القرآن نفسه على التراث الفكري البشري منذ بداية تنزله إلى نهايته. وهذا ورش كبير لم يدشن بعد بحث منتظم فيه بالمنهج الإسلامي الذي ألمحنا إليه، والذي سنأتي على ذكر بعض من معالمه ومقوماته لاحقا. بل على العكس من ذلك نجد أن معظم «المشاريع» المنجزة في هذا التراث وحوله، هي بمفاهيم مادية جدلية، وتاريخية، أو علمانية، أو قومية.. قائمة أصلا على استبعاد النص ولو كان مؤسسا بدعاوى متهافتة، مما يجعل أمر المعالجة التاريخية تستلزم درء شبهات معاصرة، تزداد حولا بعد آخر أمام تأخر مشروع البناء والمراجعة الذاتي.

2 – في الحاجة إلى استئناف تجديدي شامل في العلوم الإسلامية وبناء أصول فكرية :

وفيه ثلاث قضايا أساسية:

1 – لا يخفى أن العلوم الإسلامية نشأت ابتداء من الوحي، انبثقت عن الكتاب والسنة، ثم توسعت في التاريخ واستقرت على أوضاع معينة. فالأصل فيها أن بينها وحدة عضوية موضوعية لوحدة الأصل والمصدر. وأن الخيط الكلي الناظم لكل هذه العلوم ينبغي أن يعكس تكاملها ودورانها مع الأصل حيث دار، بل وأن تنعكس فيها خصائصه من شمولية واستيعاب وعالمية ووسطية وواقعية وإنسانية وغيرها... والناظر إلى واقع هذه العلوم التاريخي والراهن، يلحظ أن كلا منها يكاد يدور في فلك خاص وأطر مرجعية ومنهجية خاصة. حتى لكأنها جزر منفصلة عن بعضها البعض، ذات أسوار وجدر منيعة، وأن فيها من التجريد والصورية أكثر مما فيها من الواقعية لتعطلها عن المواكبة العملية. أما عدم تفاعلها الإيجابي مع السنن الكونية والاجتماعية، فأدى من جهة، إلى تعطل جبهة العلوم الكونية والمادية فكان العجز الشامل عن بناء النماذج الحضارية الذاتية. ومن جهة أخرى، إلى تعطل جبهة العلوم الإنسانية. فكان العجز عن بناء نموذج الإنسان المسلم السوي. وهما الآن (أي العلوم المادية والإنسانية) من أهم مداخل استضعاف الأمة واستلابها لنماذج الغرب ذات الشوكة والغلبة. لم ينعكس إذن في هذه العلوم جدل الغيب والإنسان والطبيعة كما هو في القرآن وكما قدمته السيرة النبوية والقرون الأولى الخيرة، حيث كان النسق مفتوحا وحيث كانت الرؤية كلية، تنظر إلى الإنسان على أنه أسرة ممتدة، وإلى الأرض على أنها مجال الاستخلاف والتعمير، وإلى الرسالة على أنها للناس كافة... قبل أن ينغلق النسق وتنكمش الرؤية في أطر مذهبية ومدرسية ضيقة.

2 – يضاف إلى هذا الإشكال، إشكال آخر متفرع عنه متعلق بتصنيف هذه العلوم وترتيبها المنهجي والمدرسي التعليمي. كالتمييز بين العقيدة والشريعة والعادات والعبادات، ومدرسة الرأي ومدرسة الأثر، والعقل والنقل والحكمة والشريعة إلى آخره... حيث تطور الأمر إلى صيغ معاصرة تعكس الصراع نفسه (كالأصالة والمعاصرة – والحداثة والتقليد... والعقلانية والشرعانية – البيانية والبرهانية...إلى آخره). مما أسس، من جهة، ثنائيات تقابلية لا يقوم أحدها إلا على نقيض الآخر، توجه ثقافة وفكر الأمة إلى المزيد من الصراع والاحتراب الداخلي، ويمنع أو على الأقل يؤجل، بناء الفكر الموحد المستوعب لهذه الثنائيات في سياق تكاملي لا تقابلي. والقرآن كله وهو نص، خطاب عقل وفكر وتدبر واعتبار وسنن آيات.. مما بإمكانه أن يؤسس معرفة برهانية وعقلانية سننية، كونية وإنسانية، بما في ذلك قضايا الإيمان والاعتقاد الصرف. ويحتاج في هذا السياق إلى تحرير الثنائيات من الصراع التاريخي والمعاصر، أي من التقابل إلى التكامل، وبنائها بناء معرفيا وفق منهج تتكامل فيه مصادر المعرفة (نصا وعقلا وواقعا)، حيث بالإمكان استيعاب أطروحات الغرب وتجاوزها.

←

قواعد أساسية في فقه الواقع:2/2

د. عبد الكبير حميدي

ينقسم فقه الواقع إلى قسمين: فقه كلي يتعلق بالأصول والكليات، وفقه جزئي يتعلق بالفروع والجزئيات. وإذا كان غرض القسم الأول هو: التقعيد لفقه الواقع وضبطه من خلال الاجتهاد في إنتاج القواعد والطرائق المكونة لمنهج الفقه؛ فإن غرض القسم الثاني هو: جرد النتائج التي أفضى إليها إعمال المنهج في الواقع وتطبيقه عليه. ولسنا معنيين . في هذا المقال . بهذا القسم الأخير، ولا حتى بالقسم الأول بشكل مفصل. ما يعنينا الآن هو الوقوف على ثلاث قواعد يعتبر الوقوف عليها بداية البداية، ورأس الطريق في تكوين الملكة المنهجية المتعلقة بفقه الواقع.

1 - قاعدة اعتبار الواقع مجالاً للتفاعل بين الوحي والعقل:

لقد جاء الوحي بتصور شامل ومتكامل للحياة البشرية بكل أبعادها ومناحيها، وهو يسعى بذلك إلى التأسيس لواقع اجتماعي إنساني ينسجم مع نظرته إلى الوجود والحياة والإنسان، ولكن الوحي لا ينظر إلى الواقع نظرة نمطية واحدة، بل يميز فيه بين: ظواهر وجوانب إيجابية تنسجم مع تصوراته وتتماشى مع مقاصده، يمكن التعايش معها والبناء عليها، كما يتجلى من خلال الحديث: «إنما بُعِثتُ لأتمم مكارم الأخلاق»(1)، وأخرى سلبية لا بد من إصلاحها أو تغييرها. وبما أن الإنسان في التصور الإسلامي هو خليفة في أرض الله، والعقل هو مناط التكليف بذلك؛ فإن الإنسان العالم هو المكلف شرعاً بتنزيل تصور الوحي للحياة البشرية في الواقع، وتصريفه فيه، والانتقال به من حيّز القوة إلى حيّز الفعل، ولن يتأتى ذلك إلا بتوفر ثلاثة شروط:

- **أولاً:** فقه العقل للوحي فقهاً عميقاً أفقياً وعمودياً.
- **ثانياً:** تمثُّل العقل للواقع تمثلاً صحيحاً شاملاً ومستوعباً.
- **ثالثاً:** نجاح العقل في حسن تنزيل الوحي على الواقع، وحسن تصريفه فيه.

و بذلك يتبين أن الواقع هو مجال خصب وواسع للتفاعل بين الوحي والعقل.

2 - قاعدة اعتبار فهم الواقع مقدمة لإنتاج فقه الواقع والعمل والإنجاز فيه:

فقه الواقع . كما سبقت الإشارة . مركب اصطلاحي يعبر عن مستوى من إدراك الواقع يتميز بقدر كبير من الدقة والإحاطة والوضوح، بعيداً عن العموميات والانطباعات والآراء المسبقة. ولإنتاج فقه راشد وناضج للواقع؛ لابد من المرور من مرحلتين:

- **الأولى: مرحلة الفهم:** وتتجلى في رصد ظواهر الواقع المختلفة، وتجميع معطياته، واستقراء جزئيات أحداثه، وتفاصيله اليومية في الزمان والمكان، وفي مختلف الميادين: في السياسة، والاقتصاد، والاجتماع، والأخلاق، والثقافة، والإعلام، وغيرها.
- **الثانية: مرحلة الفقه:** وتُعنى بفرز المعطيات، وتصنيف الظواهر والوقائع، حسب معايير ومقاييس دقيقة ومحددة، كما تُعنى بالبحث عن الخيط الناظم للأحداث، والأسباب الكامنة وراءها، والسنن والقوانين الحاكمة لنشأتها، وتطورها، واختفائها، وُصُولاً في نهاية المطاف إلى صياغة الجزئيات في الكليات، والخروج بقواعد نظرية، وقوالب تصورية تمثل التصور النظري العام للواقع.

ولبلوغ مستوى الفقه لا بد من إتقان الفهم؛ وعلى قدر درجة الفهم من الإحاطة والدقة والوضوح تكون درجة الفقه.

على أن فقه الواقع في العمل الدعوي المعاصر ليس مقصوداً لذاته، وإنما المقصود منه هو: الفعل والإنجاز في الواقع وفقاً للقاعدة المقاصدية الشرعية التي عبّر عنها الإمام الشاطبي في كتابه «الموافقات» بقوله: «كل علم لا ينبني عليه عمل فهو باطل شرعاً».

إذا كان الأمر كذلك؛ فإن فقه الواقع في مجال الدعوة إلى الله يجب أن يكون مدخلاً نحو إنجاز فعل دعويّ راشد متنوع وكاف لرفع الدعوة والدعاة إلى مستوى الخيرية والإمامة في كل مجال. على أن مستوى الفعل والإنجاز الدعوي في الواقع يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمستوى الفقه الذي يرتبط بدوره بمستوى الفهم، اتساعاً وضيقاً، دقة وضعفاً، وضوحاً وغموضاً.

3 - قاعدة اعتبار «التجربة التاريخية»، و «السياق التاريخي» مدخلاً أساسياً لفقه الواقع، والوقوف على عناصر التأثير فيه (أهمية الوعي التاريخي):

يتميز الواقع بحيثياته وأحداثه وظواهره بأنه ليس وليد لحظته التاريخية الآنية، وإنما هو عبارة عن: تراكم تاريخي ممتد ومستمر للوقائع والأحداث، خلال فترة زمنية تمتد بين الماضي والحاضر؛ ولذلك فإن فهم حقيقة الواقع، والوقوف على بنياته من الوقائع والأحداث بشكل علمي صحيح يستلزم الرجوع إلى الماضي للبحث في امتدادات الواقع فيه، ودراسة نشأة الوقائع وتطورها، والعوامل الكامنة وراءها. ومعنى ذلك أنه لا بد لفهم واقع مجتمع مّا من استحضار «تجربته التاريخية» في الزمان والمكان، ولا بد لفهم حدث أو ظاهرة ما من الوقوف على «السياق التاريخي» لذلك الحدث، أو لتلك الظاهرة. وبكلمة: إن الدعاة إلى الله، وأنصار المشروع الإسلامي في كل مجال مطالبون اليوم وأكثر من أي وقت مضى، بتحصيل قدر من «الوعي التاريخي» يُمَكِّنُهم من فقه صحيح للواقع، وإنجاز راشد فيه.

المصادر والمراجع :
- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
- الحديث النبوي الشريف.
- إعلام الموقعين، ابن القيم.
- في فقه التدين فهماً وتنزيلاً، الدكتور عبد المجيد النجار.
- فقه واقع الأمة : دراسة في المفهوم والشروط والعوائق، الدكتور الشاهد البوشيخي.
- الموافقات في أصول الشريعة، الإمام الشاطبي.
- تفسير المنار، الشيخ محمد رشيد رضا.
- المفردات، الراغب الأصفهاني.
- لسان العرب، ابن منظور.
- التعريفات، الجرجاني.
- مقاييس اللغة، ابن فارس.
- سلسلة أين الخلل؟ مجلة الأمة القطرية.

من أجل منهاج قرآني تجديدي (تتمة)

تعكس الصراع نفسه (كالأصالة والمعاصرة - والحداثة والتقليد... والعقلانية والشرعانية - البيانية والبرهانية...إلى آخره). مما أسس، من جهة، ثنائيات تقابلية لا يقوم أحدها إلا على نقيض الآخر، توجه ثقافة وفكر الأمة إلى المزيد من الصراع والاحتراب الداخلي، و يمنع أو على الأقل يؤجل، بناء الفكر الموحد المستوعب لهذه الثنائيات في سياق تكاملي لا تقابلي. والقرآن كله وهو نص، خطاب عقل وفكر وتدبر واعتبار وسنن آيات.. مما بإمكانه أن يؤسس معرفة برهانية وعقلانية سننية، كونية وإنسانية، بما في ذلك قضايا الإيمان والاعتقاد الصرف. ويحتاج في هذا السياق إلى تحرير الثنائيات من الصراع التاريخي والمعاصر، أي من التقابل إلى التكامل ،وبنائها بناء معرفيا وفق منهج تتكامل فيه مصادر المعرفة (نصا وعقلا وواقعا)، حيث بالإمكان استيعاب أطروحات الغرب وتجاوزها.

من جهة أخرى، أسس تصنيف العلوم المتقدم إلى التمييز بين العقيدة وأحكامها، وبين السلوك والمعاملات أو الشريعة وأحكامها، وبين الفكر وتأملاته ونظراته. فبدت الأعمال والأفكار وكأنها مستقلة ولا علاقة لها بأطرها العقدية الموجهة، فنمت في الأمة وشاعت مظاهر الإرجاء والجبر والتعطيل والتواكل والسلبية... ما تزال تشتغل في الأمة فكرا وسلوكا بصيغ وأشكال مختلفة إلى الآن. ويحتاج في هذا السياق كذلك إلى وصل الفكر والعمل، كل الفكر والعمل بالمقومات العقدية والإيمانية لكونهما كيانين لا ينفصلان. فلم يرد الإيمان في القرآن إلا مقرونا بعمل، وكل صفات «الذين آمنوا»، أعمال بالفكر والقلب والجوارح. وإلى الاشتغال بتحرير العقيدة المؤطرة للفكر والعمل من كل دواخلها وشوائبها الكلامية والخرافية البدعية عبر التاريخ. بما يسمح لها أن تكون منطلقا وقاعدة للرؤية الكلية للإسلام عن الإنسان والكون والحياة. وذلك ببنائها على القطع لا الظن، والمحكم لا المتشابه، كما يعرضها منهج الهيمنة والتصديق القرآني.

3 - الإشكال الثالث هنا، يتجلى في كون التحديات القائمة بوجه الأمة الآن تحديات جماعية أكثر منها فردية وميدانية أكثر منها نظرية. وعلومنا كما هي بطابعها النوازلي الفردي والنظري التجريدي الغالب، مادة ومنهجا، لا تسعف في مواجهة هذه التحديات وتقديم الإجابات اللازمة. وإذا كان الأصل في الأصلين (أصول الفقه وأصول الدين) وضع القواعد العملية للفقه والفكر، فإننا نجد أن الفقه قد نجح في أن تكون له أصول لولا أن اغتالها التجريد لطروء الدخيل المنطقي الصوري عليها. أما الفكر فلم ينجح علم الكلام في أن يضع له أصولا لا عملية ولا نظرية. خاصة تلك التي تنبني على كليات مفاهيمية هي تكاليف جماعية للأمة. وفي اعتقادي أن التحديات التي تواجه الأمة، لا يمكن أن ترتفع إلا بالنهوض الجماعي للأمة بتكاليفها كأمة. وهذا أمر لا يسعف فيه الفقه الفردي والجزئي التفريعي على سعته وإحاطته. فلا بد من فقه للأمة يعمل على إخراجها وبعثها ينبني على أصول فكرية كلية مستوعبة، يكاد حضورها ينعدم في تراثنا الفكري. وبالرغم من النكبات والأزمات التي توالت في الأمة، وإن كان لهذا الأمر تبريره السياسي في احتكار السلطة وممارسات كثير من الخلفاء والسلاطين القمعية، التي تحول دون الخوض في الشأن الجماعي نقدا وتوجيها، فإنه ليس بمانع من بنائه فكريا تأصيلا وتقعيدا.

وبالنظر في القرآن الكريم نجد أنه لم يرد حديث عن الأمة -في الغالب- إلا مقرونا بتكليف جماعي. وتلك التكاليف هي ذاتها أصول تحتاج إلى مزيد بناء واستكشاف وتفعيل على الساحة الفكرية العلمية والعملية. كأصول: الخيرية و الوسطية والاستخلاف والتعمير وحمل الأمانة والعالمية والشهادة وغيرها ... وهناك من الآيات والأحاديث ليس فقط ما يكفي لهذا البناء، بل ما يفرضه ويوجبه وما يدفع إليه ويحفز عليه، إذ لا سبيل للنهوض الجماعي إلا به.

إننا بحاجة عموما إلى إعادة بناء هذه العلوم، لا من خلال تشكلاتها التاريخية، بل من خلال الأصل الذي انطلقت منه (كتابا وسنة) بالشكل الذي تبرز فيه وحدتها وتكاملها، وتنتفي كل أشكال التعارض والانفصال الزائف فيها، وتبرز تكاليفها وأحكامها الجماعية كما برزت الفردية. وبالشكل الذي تعطي للخلق والحياة معنى وغاية وتنفي عنها كل أشكال العبثية والعدمية التي تغذيها كثير من فلسفات الغرب المعاصرة الآن، والتي أمسى الإنسان فيها كائنا طبيعيا بسيطا تجري عليه القياسات والتجارب الطبيعية ذاتها. وبالشكل ،كذلك، الذي ينفي عنها مظاهر التحيز والنزوع الاكتفائي ويسد مواطن الفراغ والخلل فيها من خلال استحضار مصادر المعرفة في تكاملها.

أوراق شاهدة

زمن المجاهرين بكل الآثام

يحزنني كل هذا العطب الذي تسلل إلى جسم الأمة وروحها فأنبت كل هذه المخلوقات المشوهة المعالم، ونحن ندخل عصر ذل قل نظيره. وأكثر من أي وقت مضى يتنزل حديث رسول الله ﷺ في أمته التي غدت مستباحة بل مسخرة تتفكه شعوب العالم بقدرتها الفذة على التفتت والتشرذم إلى مالا نهاية. وهي تنيخ ركاب العزة لرواد القصعة القدامى والجدد يقسمون الوزيعة كما بالأمس، ودون أدنى حرج من مساءلة أو احتجاج. وقد هان العرب فسهل الهوان عليهم. وفي ظل هذا النكوص تتبدى لوحة الخلية الأسرية أكثر إفرازا لظواهر الانحراف التام عن منظومة الأخلاق المبهرة التي جاء بها الإسلام وارتقى بها الرسول ﷺ إلى مرتبة النموذجية المطلقة .

ويبدو للمطلع على إحصائيات أرقام الجريمة بالعالم العربي ونوعيتها أن العرب والمسلمين ارتدوا إلى الجاهلية بمفهومها اللغوي لا بمفهومها التاريخي الذي يحيل على عرب ما قبل الإسلام وما حملته كتب السيرة من حكايات معاملاتهم الإنسانية الراقية كالكرم ونجدة الملهوف ورفع الظلم عن المستغيث وعزة النفس إلخ ..

وبالتالي هي اللَّخبَطة التامة على مستوى القيم، والخلل جلي، يحتل فيه الأبوان مرتبة الشرف مع التنويه كمسؤولين وضحايا في نفس الآن.

وقد سجلت دوائر الرصد التربوي في بلدان عربية كالجزائر على سبيل الذكر تصعيدا خطيرا في نوعية الجرائم التي ترتكب ضد الأصول كالاغتصاب والعنف حد تشويه الضحايا بشكل سينمائي مروع يحيل على تساؤل مشروع مفاده إن كان المجرمون هم أنفسهم من يقومون بهذه الجرائم المروعة أم هم متلبسون بأرواح شريرة وغير آدمية، فلا هم يخشون ولا هم يذكرون مصداقا لقوله تعالى ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾.

وببلادنا يتمدد نفس الورم السرطاني مهددا بزعزعة أمن البلاد من خلال انبجاس سلوكيات إجرامية، تظهر بكل جلاء أن معطيات بنيوية متداخلة (وعلى رأسها المعطى الديني المحجم)، صاغت خلطة غرائبية خطيرة تتشكل ملامحها المخيفة اللحظة تحت يافطة ما يسمى بالتشرميل .

وعبثا يحاول المعارضون للدين وقيمه الرسالية التصحيحية إقصاءه من مهمته الحاسمة في إحقاق الأمن والتوازن وإبعاده عن الخوض في جذور هذه الآفة، وسبل اجتثاثها من خلال شرع الله الخبير بعباده ، بلا جدوى ﴿إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا﴾.

وبصيغة أوضح فإن كل الظواهر السلبية المرافقة لما سمي بالتشرميل لدى فئة الشباب نهى الشارع الحكيم عنها. وعلى سبيل المثال فاستعراض السيوف علنا وإشهارها في الفضاء العام كما فضاء الأنترنيت محرم تماما، ففي رواية لمسلم قال : قال أبو القاسم: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى ينزع وإن كان أخاه لأبيه وأمه». ونهى رسول الله ﷺ عن ترويع المسلم بالسلاح أو بغيره حتى وإن كان مازحا. وما نراه من عروض استفزازية مخجلة على شبكات التواصل الاجتماعي للأسلحة البيضاء والمبالغ المالية الكبيرة ناهيك عن الألبسة الرياضية العالمية الاسم بما تفترضه من قدرات مادية كبيرة لا سبيل للحصول عليها خاصة بالنسبة للفئات الشبابية الفقيرة إلا بالسرقة أو بالعنف المادي الجسيم ، يدعو إلى القلق والتوجس من كل الاحتمالات الدرامية، ودليل ذلك ما حدث في مدينة الدار البيضاء حين أقدم شاب على ذبح أمه من أجل مبلغ مالي قيل بأنه استودعها إياه وقالت هي رحمها الله أن وديعته اشترت بها خروجه من السجن، وكان يمضي عقوبة حبسية لتورطه في سوابق إجرامية .

إن ابتكار اللقطات الأكثر وقاحة والصور الأكثر اجتراء وميوعة بصفحات التشرميل لمجموعات من الشباب بمختلف مناطق الدار البيضاء والمجاهرة بكل أنواع الخلاعة من تعاطي للمخدرات والشيشا والشذوذ الجنسي ورفض العلاقات السوية واعتبار أهلها بمثابة «مكلمنين» أي باللهجة المغربية «مكلخين»، والارتهان لفكر فاسد وجد خطير على مستوى العقيدة والسلوك مفاده أنك يجب أن تلبس الماركات الغالية حتى لا تكون محتقرا بين الفتيات من التلميذات، وأنك ستلجأ دون تبكيت ضمير إلى سرقة حقائب النساء، وهو ما يسمونه في قاموس المشرملين ب «الشنطي ونطي» للتباهي وكسب الإعتراف لشيء مرعب ومخيف، ويشي بأن البيوت لم يعد لها آباء يحمونها، وأن الفرامل أتلفت بشكل نهائي. وأننا أمام مظاهر «انمساخ قيمي» رهيب وغير مسبوق، وأن الأبواب غدت مفتوحة لأعداء الوطن للعبث بأمن البلاد. وهي النذر الأولى لعاصفة اللاستقرار لا قدر الله، إن لم يتدارك غيورو الوطن قافلة النعاج المتراكضة إلى الهاوية، فقد شهدت دول «الربيع العربي» اختراقا خارجيا لجهات عدوانية اشتغلت في البداية على المنسوب الأخلاقي لهذه الشعوب بالضرب على وتر الحرية والحقوق لحلحلة الأنفس والمناعات الرخوة المتبقية ثم انتقلت إلى السرعة القصوى بإشعال مشاعر الغضب ضد أعداء تلك الحقوق والحريات المزعومة فكانت تلك الهبة المحركة عن بعد، تذكيها عوامل الإشعال الموضوعية داخل بلاد العرب من مظالم .

فهل يقف تشخيصنا عند هذه الأغصان المريضة أم نتعداه إلى الطبقات الباطنية لجذور الشجرة ونحن أمام لائحة من العاهات المتناسلة؟؟ ..

أفلا نحتاج إلى قومة علمية لمؤطري الشأن الديني كل من موقعه رفقة كل الفاعلين الصادقين لتعديل بوصلة القيم وولوج زمن المجاهرين بالآثام بالمجاهرة بالتسديد والتصحيح بكل الحب والرحمة قبل فوات الأوان؟؟

قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه «ما كانت الدنيا هم أحد إلا لزم قلبه أربع: فقر لا يدرك غناه، وهم لا ينقضي مداه، وشغل لا ينفذ، وأمل لا يدرك منتهاه...»

وللحديث بإذن الله بقية.

ذة. فوزية حجبي
al.abira@hotmail.com

رمضانيات

فات الأوان..!

أقسمت جهد أيمانها:

والله لأنتقمنَّ لك منه يا أمي شر انتقام..!

أبرت بقسمها.. استهوتها نشوة الغلبة.. أبدعت في كيدها له .. زجت به إلى السجن وهي المتخصصة في دراسة القانون... لم تشفع له أبوته.. ولا شيخوخته ..ولا مرضه..

تدخل الأهل والمعارف.. فازدادت غرورا بقوتها.. تتعلل بطلاقه لأمها وزواجه من أخرى... وتتبجح بدرايتها للقانون وبمعارفها وجاهها...

"المتعلمات مثلك أرسلن آباءهن إلى الحج... بالغن في البرور بهم وتدليلهم.. وأنت بالغت في إذلال أبيك وأدخلته السجن.. هكذا تكون البنات المرضيات المثقفات وإلا فلا..".

الآن، ترن في مسمعها هذه الكلمات لصديق له حين رجاها أن تعفو عن أبيها.. لكنها تعنتت.. فخلصه من السجن، وأدى عنه كفالة مالية ...

تابع حينها صديقه عتابه لها: "لا أدري إن طال بي العمر.. وسبقك هو إلى القبر.. ستشعرين بالحسرة والندم مهما كان.. إن بكيت أو تباكيت على جثته، فأنت تمساح منافق والبكاء عليه خسارة.. لأنك خاسرة...".

تدخل الأهل والأقارب ثانية.. رجوها أن تعوده في مرض موته.. لكنها تعنتت كعادتها..

ارتمت على جثته تبكي وبداخلها حرقة تتأجج.. استفزتها نظرات إخوتها وعائلتها.. طلبت منهم أن يتركوها وحدها مع جثته.. بكت بأدمع حرى .. قبلت رأسه وكفيه وقدميه.. اعتذرت له.. لكن هيهات... هيهات...

كانت قد اشتهرت ببراعتها في القانون.. وبكفاءتها المهنية.. لكنها أصبحت مشهورة بعقوق أبيها.. لم يخلصها الأطباء النفسانيون ولا العقاقير الطبية من اجترارها الحسرة والندم والأرق والاكتئاب.. تزور قبره.. تبكي بمرارة.. تعتذر له.. لكن هيهات .. هيهات...

ذة. نبيلة عزوزي

إصدارات

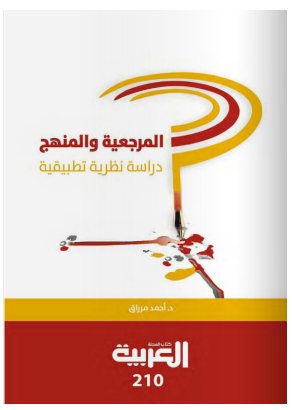

أصدر المجلة العربية التي تصدر من المملكة العربية السعودية ضمن سلسلة كتابها الشهري عدد 210 كتاب «المرجعية والمنهج : دراسة نظرية تطبيقية» للدكتور أحمد مرزاق من مدينة وجدة المغربية، وهو كتاب يعالج إحدى الإشكالات العويصة ليس في النقد الأدبي وحده وإنما في الفكر العربي والإسلامي المعاصرين أيضا بل وفي الفكر الغربي ذاته (إشكالية الذاتية والموضوعية في المناهج في العلوم الإنسانية والأدب) لذلك كانت مسألة المنهج أهم المساءل وقد اعتبرها الدكتور الشاهد البوشيخي كما أورد ذلك المؤلف نفسه «مشكلة أمتنا الأولى، ولن يتم إقلاعنا العلمي ولا الحضاري إلا بعد الاهتداء في المنهج للتي هي أقوم» وقد عالج المؤلف مسالة التعالق بين المنهج والرؤية الفكرية والخلفية المعرفية التي تحكمه مسترشدا برصيد معرفي من القراءات الموسعة في الفكر والفلسفي والنقدي العربي والغربي وانتهى إلى صعوبة الفصل بين المنهج والرؤية المعرفية المنتجة له، مطبقة ذلك على منهجين عرفا انتشارا كبيرا لدى الأوساط الفكرية العربية دون الالتفات إلى خلفياتهما الإيديولوجية وهما المنهج التاريخي والمنهج التفكيكي (دريدا).

وقد تضمن الكتاب مقدمة ومدخلا وتمهيدا ثم ثلاثة فصول جاء الفصل الأول بعنوان المرجعية رؤية معرفية، والفصل الثاني المنهج بين اللغة والمفهوم، أما الفصل الثالث فجاء بعنوان : المرجعية والمنهج أية علاقة؟ ثم خاتمة ولائحة للمصادر والمراجع.

قسيمة الاشتراك

الاسم الكامل : .....

العنوان الكامل : .....

الاشتراك السنوي : 20 عددا

■ داخل المغرب : 60 درهم ■ خارج المغرب : 20 أورو أو ما يعادلها

ترسل الاشتراكات باسم :

● جريدة المحجة عن طريق الحوالة البريدية

● أو جريدة المحجة على حساب وكالة البنك الشعبي (الموحدين فاس) رقم :

2111113412900014

أما قسيمة الاشتراك والوصل فيبعثان إلى مقر الجريدة على العنوان التالي :

جريدة المحجة حي عز الله، زنقة 2، رقم 3، الدكارات، فاس – المغرب

د. الحسين زروق

شرح الأربعين الأدبية [34]

في أن الفخر يكون بالدين لا بما أصله الطين

روى الطبراني «عن ابن كعب بن مالك قال: قال كعب بن مالك: إن النبي مَرّ به وهو ينشد:

أَلا هَلْ أَتَى غَسَّانَ عنَّا وَدُونهمْ ... مِنَ الأَرْضِ خَرْقٌ حَوْلَهُ يَتَقَعْقَعُ

تَجَالُدُنا عَنْ حُرْمَنَا كُلّ فَحْمَةٍ ... كَرِدْفٍ لها، فيها القَوَانِسُ تَلْمَعُ

فقال النبي: لا يا كعب بن مالك. فقال كعب: تجالدنا عن ديننا كل فحمة. فقال النبي: نعم يا كعب»(1)

هذا الحديث من أحاديث سماع النبي ﷺ الشعر، وتعليقه عليه، وفيه ثلاثة أمور:

أولها أن الحديث هنا عن الصحابي الشاعر كعب بن مالك، وهو راويه، وكعب أحد شعراء رسول الله ﷺ الثلاثة، «كان مجوّدا مطبوعا، قد غلب عليه في الجاهلية أمر الشعر، وعُرف به، ثم أسلم وشهد العقبة، ولم يشهد بدرا، وشهد أحدا والمشاهد كلها حاشا تبوك، فإنه قد تخلف عنها»(2)، وهو ممن كان يَرُد على مشركي قريش، وكان «يُخَوِّفهم الحرب»(3).

فالحديث بناء على ذلك يَجمع بين ثلاثة أمور: أولها أن موضوعه الشعر، وثانيها أن راويه شاعر، فهو من أهل الاختصاص، وثالثها أن هذا الراوي الشاعر هو الذي كان يُنشِد الشعر وعلق عليه النبي ﷺ .

والحديث يَذكر لنا أن النبي ﷺ مَر بكعب وهو ينشِد، وفيه دلالة على أن الإنشاد لم يمنعه مانع من إسلام أو غيره، وأن الشعراء ظلوا أوفياء لموهبتهم الشعرية فاستمروا في إنشاد الشعرِ في المجالس والمناسبات.

والأمر الثاني هو الشعر الذي كان يُنشِده كعب، وقد ورد منه في نص الحديث بيتان، وهما في قصيدة من تسعة وأربعين بيتا(4)، أولهما مَطلُعها، وثانيهما سادسُها، والقصيدة مما قيل مِن الشعر في يوم أحد، وقد رَدّ بها كعب بن مالك على شاعر قريش هُبيرة بن أبي وهب(5)، ويُفهم من ذلك أن النبي ﷺ سمع الأبيات الستة الأولى على الأقل، والظاهر أنه سمع القصيدة كاملة، فاكتفى راوي الحديث بمطلعها المنبئ عنها، والبيت السادس باعتباره محل التدخل النبوي.

ورواية المتن للبيتين مخالفة لرواية السيرة وعدد مِن أمهات المصادر، ففي هذه الرواية: «يَتَقَعْقع» و«تجالدنا» و«حرمنا» و«فحمة» و«كردف»، وفي السيرة مثلا: «متنعنع» و«مجالدنا» و«ديننا» و«فخمة» و«مذرَّبَة».

وإذا كان لفظ «ديننا» الواقع في السيرة هو اللفظ المختار بعد التنقيح، فإن لفظ «فحمة» قد عده جامع الديوان تصحيفا، وأن الصواب «فخمة»، وهي «الكتيبة العظيمة».

وقد وقع في رواية المتن «حرمنا» ولم يضبط، ووزن الطويل يقتضي تسكين الراء، فلعله «حُرِمنا» اقتضت الضرورة الشعرية تسكين رائه فصار «حُرْمنا»(6)، و«حُرُمُ الرجل: عياله ونساؤه وما يحمي»(7)، وفي رواية السيرة وغيرها «جذمنا»، والجِذم: «أصل الشيء»، و«جذم القوم: أصلهم»(8)، والمعنيان متقاربان، وحاصلهما أن كعب بن مالك جعل التجالد عن الحسب والنسب والأهل، وهذا يجعل شعره افتخارا بما كانت العرب تفتخر به، وبقية من بقايا الجاهلية في شعر هذا الشاعر المسلم.

وأما الأمر الثالث من أمور الحديث فهو تعليق النبي ﷺ على كعب لما سمع قوله «تجالدنا...»، وذلك بقوله: «لا يا كعب بن مالك»، وعدول كعب عن قوله الأول إلى «تجالدنا عن ديننا كل فحمة» يفيد أن محل الإشكال كان في عَمَّن يَقع التجالد: أَعَن الدين أم الحرم، وقد ظهر نَهْيُ النبي ﷺ عن الأول في رواية المتن، وأن كعبا لسرعة بديهته عرف محل الإشكال، وموضع الخطأ، وعدل عنه بسرعة فوافقه النبي ﷺ بقوله: «نعم يا كعب».

وفي ذلك أن الفخر يكون بالدين لا بالأصل والحسب والنسب والعشيرة...

وأن التجالد يكون عن الدين لا عن غيره.

وفيه أن النبي ﷺ أراد أن يغير موضوع الفخر، فينتقل به مما كان يفخر به شعراء الجاهلية إلى ما جاء به الإسلام.

وأنه بعد الإسلام لم يعُد هناك مجال للفخر بالحسب والنسب؛ لأن كل الناس بنو آدم، وآدم من تراب، ولأن أكرم الناس عند الله أتقاهم.

وأن الشاعر وإن كان مسلما راسخ الإيمان، فقد يزل زلة ما، وقد تكون الزلة ناتجة عن عدم انتباه، لا عن اقتناع.

وأنه لا بد من أن يكون السامع يقظا لما يقوله الشاعر، وليس كل ما يَقوله يُقبل.

وأنه لا بد من ناقد بصير بضروب القول وخلفياته؛ يفيد الشاعر نفسه، ويبصره بمواضع عيوبه.

وأن الناقد غير مشروط فيه أن يكون شاعرا، فقد يقول الشعر من لا ينقده، وينقده من لا يقوله.

وأن على الشاعر أن يستفيد من ملاحظات الغير، ولا سيما إن كانت من ناقد بصير، مما يفيد أن الشاعر والناقد يكمل بعضهما بعضا.

وفي كل ذلك صورة لمشهد من مشاهد إنشاد الشعر وسماعه زمن النبي ﷺ، ولنا فيه دروس في كيف ينبغي أن تكون، وما هو دور الشاعر، وكيف يعبر، وما دور السامع، ومتى يمكنه التدخل، ثم قبل هذا وذاك كيف يكون ذلك كله في مصلحة الأمة.

---

(1) – المعجم الكبير، 97/19، حديث رقم 192، قال عنه الهيثمي في (مجمع الزوائد: 127/8): «رواه الطبراني، وإسناده حسن». والحديث من زوائد ابن هشام في السيرة، 100/3–101، لكنه لم يذكر سنده فيه.

خرق: فلاة واسعة. يتقعقع: يضطرب ويتحرك. تجالدنا: تدافعنا. القوانس: جمع قونس، وهو أعلى الخوذة.

(2) – الاستيعاب، ص: 625.

(3) – الاستيعاب، ص: 625.

(4) – سيرة ابن هشام، 96/1–100، وعنه نقل جامع الديوان، ص: 180–185.

(5) – سيرة ابن هشام، 93/1 و96.

(6) – وافق اللفظ آخر التفعيلة الثالثة وأول التفعيلة الرابعة من البحر الطويل، وهما: (فعولن مفاعيلن)، فإن حركت راء (حرمنا) اضطرب الوزن.

(7) – لسان العرب، 123/12، مادة «حرم».

(8) – لسان العرب، 88/12، مادة «جذم».

كَفْكِف دموعَكَ

الشاعر المصري مصطفى الجزار

كَفْكِف دموعَكَ وانسحِبْ يا عنترة
فعيونُ عبلةَ أصبحَتْ مُستعمَرَه
لا ترجُ بسمةَ ثغرِها يوماً، فقدْ
سقطَت من العِقدِ الثمينِ الجوهرة
قبّلْ سيوفَ الغاصبينَ.. ليصفَحوا
واخفضْ جَنَاحَ الخِزْيِ وارجُ المعذرة
ولْتبتلع أبياتَ فخرِكَ صامتاً
فالشعرُ في عصرِ القنابلِ.. ثرثرة
والسيفُ في وجهِ البنادقِ عاجزٌ
فقدَ الهُويّةَ والقُوى والسيطرة
فاجمعْ مَفاخِرَكَ القديمةَ كلّها
واجعلْ لها مِن قاعِ صدرِكَ مقبرة
وابعثْ لعبلةَ في العراقِ تأسُفاً
وابعثْ لها في القدسِ قبلَ الغرغرة
اكتبْ لها ما كنتَ تكتبُه لها
تحتَ الظلالِ، وفي الليالي المقمرة
يا دارَ عبلةَ بالعراقِ تكلّمي
هل أصبحَتْ جنّاتُ بابلَ مقفرة؟
هل نَهْرُ عبلةَ تُستباحُ مِياهُهُ
وكلابُ أمريكا تُدنّس كوثرَه؟
يا فارسَ البيداءِ.. صِرتَ فريسةً
عبداً ذليلاً أسوداً ما أحقرَه
متطرّفاً .. متخلّفاً.. ومخالفاً
نَسَبوا لكَ الإرهابَ.. صِرتَ مُعسكَرَه
عَبْسٌ تخلّت عنكَ... هذا دأبُهم
حُمُرٌ – لَعمرُكَ – كلُّها مستنفِرَه
في الجاهليةِ..كنتَ وحدكَ قادراً
أن تهزِمَ الجيشَ العظيمَ وتأسِرَه
لن تستطيعَ الآنَ وحدكَ قهرَهُ
فالزحفُ موجٌ.. والقنابلُ ممطرة
وحصانُكَ العَرَبيُّ ضاعَ صهيلُهُ
بينَ الدويّ.. وبينَ صرخةِ مُجبرَه
هلاّ سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالكِ
كيفَ الصمودُ؟ وأينَ أينَ المقدرة!
هذا الحصانُ يرى المَدافعَ حولَهُ
متأهّباتٍ.. والقذائفَ مُشهَرَه
لو كانَ يدري ما المحاورةُ اشتكى
ولَصاحَ في وجهِ القطيعِ وحذّرَه
يا ويحَ عبسٍ.. أسلَمُوا أعداءَهم
مفتاحَ خيمتِهم، ومَدُّوا القنطرة
فأتى العدوُّ مُسلّحاً، بشقاقِهم
ونفاقِهم، وأقام فيهم منبرَه
ذاقوا وَبَالَ ركوعِهم وخُنوعِهم
فالعيشُ مُرٌّ .. والهزائمُ مُنكَرَه
هذِي يدُ الأوطانِ تجزي أهلَها
مَن يقترفْ في حقّها شرّا..يَرَه
ضاعت عُبَيلةُ.. والنياقُ.. ودارُها
لم يبقَ شيءٌ بَعدَها كي نخسرَه
فدَعوا ضميرَ العُربِ يرقدُ ساكناً
في قبرِهِ.. وادْعوا لهُ.. بالمغفرة
عَجَزَ الكلامُ عن الكلامِ .. وريشتي
لم تُبقِ دمعاً أو دماً في المحبرة
وعيونُ عبلةَ لا تزالُ دموعُها
تترقّبُ الجِسْرَ البعيدَ.. لِتَعبُرَه

اللغة العربية لغة القرآن : مباني ومعاني 16

د. الحسين كنوان

البنية اصطلاحا (تتمة)

بدأنا في الحلقة الماضية مناقشة الشطر الثاني من العنوان أعلاه : «البنية اصطلاحا»، ونبهنا إلى احتمال اتساع وجود أمثلة هذا المفهوم في مجال الممارسة أكثر مما تشمله التعاريف اصطلاحا، وفي هذا السياق أوردنا نماذج من النصوص التي تتحدث عن مسائل متنوعة في بعض مستويات الدرس اللغوي العربي غير ما ينص عليه المصطلح كما هو معروف في هذا المجال، والكلمات المستعملة لهذا الغرض في النصوص المذكورة تتضمن حرفي «الباء» و«النون» باعتبارهما قاسما مشتركا بين كل تلك الكلمات رغم تنوع . أشكالها . بما في ذلك كلمة «بنية» المستعملة اصطلاحا للدلالة على مستوى معين من مستويات الدرس اللغوي العربي، فقد لا حظنا أن كل تلك الكلمات ذات وظائف دلالية متنوعة، إلى درجة أن دلالة البعض منها أكثر وضوحا في حالة معينة من القواعد، هي التمييز بين دلالتي القلة والكثرة في جموع التكسير، وعليه يمكن القول بأنه ما من شكل من الأشكال «البنية» الذي يمثل هذا النوع أو ذاك من الكلمات إلا وله دلالة مركبة في مجاله : دلالة عامة، ودلالة خاصة.

وقبل أن نوضح بأسلوبنا ما نعنيه بالدلالة المركبة للكلمة الواردة على شكل معين، نذكر بعض الأبواب في كتاب سيبويه التي نرى أن هذه المسألة واردة فيها بوضوح. ونذكر عنوان كل باب على حدة مشفوعا بمقتطفات من الأمثلة التي تنضوي تحته. مما يبدو لنا أنه كاف لتوضيح الفكرة التي ذكرناها، وذلك كما يلي :

يقول سيبويه :

1 – «هذا باب ما جاء من الأدواء على مثال وَجِع يوْجع وَجَعا وهو وَجع لتقارب المعاني:

وذلك حَبط، يحبط، حبَطا وهو حَبِطٌ، وحَبِجَ يَحْبَجُ حَبَجاً وهو حَبِجٌ.

وَقد يجيء الاسم (أي اسم الفاعل، أو ما يقوم مقامه في بعض الأمثلة وهو الصفة المشبهة) فعيلا نحو مَرِض يَمْرض مرَضاً وهو مريض، وقالوا : سَقِم يسقَمُ سقما وهو سقيم. وقال بعض العرب سَقُمَ...»(1)

2 – «هذا باب فَعْلان ومصدره، وفعله :

أما ما كان من الجوع والعطش فإنه أكثر ما يُبْنى في الأسماء (ويعني أيضا اسم الفاعل أو ما يقوم مقامه كما تمت الإشارة إليه أعلاه) على فَعْلان، ويكون المصدر الفَعَلُ ويكون الفِعْل على فَعِل يَفْعَلُ، وذلك نحو ظمِئَ يظمَأ ظمَأ وهو ظمْآن، وعطش يعْطَش عَطَشاً وهو عَطْشان.. وغرِثَ يَغْرثُ غَرَثاً وهو غَرْثان، وعَله يَعْلَهُ عَلَهاً وهو عَلْهان : وهو شدة الغَرَث والحرص على الأكل...»(2)

3 – «هذا باب ما يبنى على أفْعَلَ :

أما الألوان فإنها تُبنى على أفْعل: ويكون الفعل على فَعِل يَفْعَل، والمصدر على فُعلة أكثر، وربما جاء الفعل على فَعُل وذلك (قولك) أدِم يأدَمُ أُدْمَة، ومن العرب من يقول: أدُم يأدم أُدْمَة، وشهِب يَشْهَبُ شُهبة...»(3).

4 – «هذا باب أيضا في الخصال التي تكون في الأشياء :

أما ما كان حُسْنا أو قُبْحا فإنه (مما) يُبنى فِعْلُه على فَعُل يَفْعُل، ويكون المصدر فَعَالا، وفَعالة وفُعلا، وذلك قولك : قَبُح يقْبُحُ قَباحة، وبعضهم يقول قُبُوحة فبناه على فُعولة كما بناه على فعالة، ووسُم يَوْسُم وَسامة وقال بعضهم وساماً فلم يُؤنث..

وتجيء الأسماء (...) على فعيل وذلك : قبيح، ووسيم وجَميل، وشقيح، وذميم...»(4).

نقف عند عناوين هذه الأبواب الأربعة التي نرى أن ما نقصده بالدلالة العامة أي الدلالة التي تعني مجالا معينا واضح في عناوينها. فثمة الداء الذي عنوانه الوجع. ثم الجوع والعطش. ثم الألوان، ثم الخصال. وكل مفهوم من بين هذه المفاهيم يمثل الدلالة العامة في مجاله.

لكننا عندما نتابع الأمثلة الواردة في كل باب مما يرمز لهذا المعنى العام بشكل من الأشكال، فإننا نلاحظ أن موادها متنوعة، فالأدواء مثلا فيها الحَبط، والحَبَحُ، والمَرَض والسقم، وكل منها داء، وباب فَعْلان الخاص بالجوع والعطش فيه : الظمأ والظمآن، والعطش والعطشان، والغَرَث والغَرْثان، والملاحظة نفسها واردة بالنسبة للبابين الأخيرين (3–4) لكن اللافت للانتباه أكثر هو ورود شكلين متنوعين من الكلمات مع اتحاد في المادة للدلالة على نفس المفهوم مثل «أَدِمَ يَـأْدَمُ» بالوجهين في الماضي والمضارع أي الكسر والضم في الماضي «أدِم» و«أدُم»، والفتح والضم في المضارع «يأدَم» و«يأدُم». ويتضح الأمر أكثر على خصوصية الدلالة في تنوع أمثلة الباب الواحد في دلالتها على ذلك المعنى العام كتنوع مصادر الباب الرابع الدالة على الخصال بين فَعال، وفَعالة، وفُعْلا، وكذلك تنوع الاسم في الباب الأول بين فَعِل وفعيل، ولكل شكل ميزة دلالية يتميز بها، وإن كان يشارك غيره في دلالة المجال العام وفيما يعني تميز كل شكل «بنيبة» بدلالته الخاصة ضمن المفهوم العام لتلك الدلالة. يقول سيبويه في موضوع آخر: «اعلم أن كل بناء كان لأدنى العدد فإنك تُحَقِّرُ ذلك البناء لا تجاوزه إلى غيره، من قبل أنك إنما تريد تقليل الجمع، ولا يكون ذلك البناء إلا لأدنى العدد، فلما كان ذلك(5) لم تجاوزه»(6).

والذي يعنينا من هذا النص هو قوله : «من قبل أنك إنما تريد تقليل الجمع» وقوله: «ولا يكون ذلك البناء إلا لأدنى العدد» فأشكال الكلمات التي يقال إنها لأدنى العدد (وهي أفْعِلَة، وأفْعُل، وفِعْلَة، وأفْعَال) تعبر بأشكالها الخاصة عن المعنى العام الجامع بينها جميعا هو : تقليل العدد، وهذا هو الذي نسميه بالمعنى العام في هذا السياق ثم يأتي بعده المعنى الخاص مضمن في كل كلمة تدل بشكلها «بنيتها» أو مادتها (كما سنوضح) على ذلك المعنى دلالة مباشرة. فمادة فَعْل حبج غير مادة حبط فيما يدل على الوَجع، ومادة فعل ظَمِئَ غير مادة عطش فيما يدل على الاحتياج للماء. وفعل قبُح غير فعْل وَسُم فيما دل على خصلة، والألوان تشترك في صيغة أفْعَل، ولكل لوْن مادته، وعليه نرى أن كل كلمة ذات شكل معين مما يصح أن يطلق عليه بِنْية على وزن فِعْلة يتضمن نوعين من الدلالة : الدلالة العامة، ثم الدلالة الخاصة في نفس المجال. والله أعلم.

(يتبع)

(1) – الكتاب : 4/17 – 21

(2) – نفسه : 4/21 – 25

(3) – نفسه : 4/25 – 28

(4) – نفسه : 4/28 – 35

(5) – هكذا وردت في النص الذي نقلنا، ونرى أن كلمة «ذلك» تعني «كذلك»، والله أعلم.

(6) – الكتاب 4/35.

«تقنيات البحث في العلوم الشرعية والأدبية» موضوع دورة نظّمها مركز الريف مؤخراً

نظّم «مركز الريف للتراث والدراسات والأبحاث» بالناظور، بتنسيق وتعاون مع «جمعية تيسير لتسيير دار الأم»، بمقرّ الجمعية، يوم السبت 19 أبريل 2014، ابتداءً من التاسعة صباحاً، يوماً تكوينيا في موضوع «تقنيات البحث في العلوم الشرعية والأدبية»، استفاد منه عدد من الطلبة الباحثين. وتوزعت أشغاله بين محاضرات نظرية وورشات تطبيقية. وقد أطّرها جميعها الأساتذة: علي مزيان الذي قدّم مداخلة عن «مقاصد التأليف وكتابة البحث»، ومحمد علي الدراوي الذي تمحورت مداخلته حول «مهارة البحث عن المعلومة وتوثيقها»، والميلود كعواس الذي خصّ عرضه ببيان «منهجية تصميم بحث علمي»، واختُتمت العروض النظرية بمداخلة فريد أمعضشو التي تطرقت إلى «أساسيات كتابة بحث في العلوم الشرعية والأدبية». وبعد الفراغ من تقديم الورقات الأربع، كانت للحاضرين جميعا استراحة، أعقبها مباشرةً انتظامُ المستفيدين في ورشات للاشتغال على موضوعين للاستفادة مما تُنُوول سابقا بتفصيل، ثم الانتقالُ إلى مرحلة تقاسُم نتائج عمل الورشات، ومناقشة جملة من النقط والمسائل المطروحة. وبعدها وُزّعت شهادات على المستفيدين تُثبت مشاركتهم في الدورة التكوينية في الموضوع المذكور، قبل أن يُعلن الأستاذ عبد الحق معزوز؛ مسيِّر النشاط، انتهاءَ الدورة.

تذكير بفلسطين في تركيا

ذ: فهمي هويدي

هي إحدى المرات النادرة التي كانت فيها فلسطين موضوعا لمؤتمر، وليس بندا هامشيا أو تقليديا أدرج على جدول أعماله. لذلك فإن منظميه لم يسعوا إلى سد الخانة وإبراء الذمة أو إلى شيء من الوجاهة السياسية، لكنهم - صدق أو لا تصدق - ظلوا يومين كاملين يتحدثون عن «القضية» في جلسات الصباح والمساء. أتحدث عن مؤتمر منتدى فلسطين الدولي للإعلام والاتصال الذي عقد في استانبول في الأسبوع الماضي (يوما 23 و24 أبريل)، وشهده نحو 300 شخص من أنحاء العالم العربي (باستثناء السعودية ودولة الإمارات) ومن أنحاء أوروبا والولايات المتحدة وروسيا.

رغم أن «المصالحة» تمت في الوقت ذاته بين حركتي حماس وفتح، إلا أن تزامنها مع انعقاد المؤتمر كان مجرد مصادفة، لأنني تلقيت الدعوة للمشاركة في إحدى جلساته قبل أكثر من شهرين، لكنني فهمت أن خمسة عوامل أساسية كانت وراء تأسيس المنتدى وإطلاق فاعلياته. الأول أن انشغال العالم العربي بالربيع وأجوائه وتداعياته صرف انتباه الجميع إلى الشأن الداخلي في كل بلد، الأمر الذي أدى إلى تراجع أولوية القضية الفلسطينية، الأمر الثاني هو كم التشويه الذي تعرضت له القضية وأصاب الفلسطينيين منه أذى كثيرا خلال تلك الفترة، سواء من جانب معسكر التطبيع أو فلول النظام السابق أو الأصوات والمنابر التي سحبت حملة كراهية الإخوان على حركة حماس، واختزلت القضية والشعب الفلسطيني في تلك الدائرة الضيقة. الأمر الثالث تمثل في توجيه أصابع الاتهام إلى الفلسطينيين في المسؤولية عن أعمال العنف والقتل التي وقعت أثناء وبعد الثورة المصرية لتبرئة الشرطة وعناصر المؤسسة الأمنية، بعدما سجل تقرير تقصي حقائق أحداث الثورة أنها هي التي أطلقت الرصاص على المتظاهرين. ولأجل ذلك بذل جهد إعلامي هائل لطي تلك الصفحة وطمس الحقائق التي وردت فيها. العامل الرابع تمثل في حملة التعبئة المضادة التي تحدثت عن أطماع للفلسطينيين في سيناء وهى الفكرة التي رفضها وقاومها الفلسطينيون في الخمسينيات حين طرحت في عهد الرئيس جمال عبد الناصر وعرفت باسم «مشروع سيناء». العامل الخامس والأخير أن الناشطين الفلسطينيين أدركوا أن المواجهة في الفضاء الإعلامي ليست أقل شراسة من المعركة الدائرة على الأرض، لذلك بات من المهم أن يتأسس منبر فلسطيني يرعى الجهد الإعلامي الذي يتصدى لحملات التغليط والتشويه التي تتعرض لها القضية والشعب.

خلال يومي المنتدى دارت المناقشات حول خمسة عناوين أساسية هي: فلسطين في الإعلام العربي في ظل التحولات التي شهدتها أقطاره ضمن تفاعلات الربيع العربي - القضية الفلسطينية في الإعلام الغربي - الإبداع الفني في خدمة القضية الفلسطينية - مواجهة قوى الضغط الإسرائيلية (اللوبيات) في الإعلام - الاستراتيجية الإعلامية لخدمة القضية الفلسطينية. وإلى جانب الجلسات المفتوحة التى ناقشت تلك العناوين مع الخبراء وأهل الاختصاص العرب منهم والأجانب، نظمت ورشات عمل بحثت قائمة طويلة من العناوين الفرعية التي كان محورها الإجابة على السؤال التالي: كيف يُرد للقضية اعتبارها لكي تنال ما تستحقه من اهتمام في أجندة العالم العربي، ليس فقط لأجل الحقوق الضائعة في فلسطين، ولكن أيضا لحماية الأمن القومي العربي الذي لاتزال إسرائيل تعتبر تهديدا له رغم استماتتها في صرف الانتباه إلى عناوين أخرى، مثل الخطر الإيراني والصراع المذهبي وتهديد الإرهاب.

كانت مشاركتي في الندوة الأولى التي ناقشت وضع فلسطين في العالم العربي بعدما هبت رياح الربيع واستأثرت بالاهتمام طوال السنوات الثلاث الأخيرة.

فيما قلت، فإنني حذرت من التبسيط والاختزال في فهم الربيع العربي، وقصدت بذلك تعريف الربيع بما يحصره في نطاق التغييرات التي حدثت في بعض الأنظمة العربية، في حين أن الأمر أكبر من ذلك وأوسع نطاقا، لأن أهم ما في الربيع هو التحول الذي حدث في محيط الشعوب العربية ذاتها، التي كسرت حاجز الخوف وعبرت عن رغبتها في التغيير والثورة على مظاهر الظلم السياسي والاجتماعي. وبهذا المفهوم فإننا ينبغي أن نلاحظ أصداء ذلك الربيع ليس فقط في أربع أو خمس دول شهدت التغيير أو محاولاته، وإنما أيضا في أصوات الجماهير العريضة التي لاتزال تتردد بقوة وشجاعة على مواقع التواصل الاجتماعي في جميع الدول العربية بلا استثناء، بما في ذلك الدول التي قاومت رغبات التغيير وقمعتها بمختلف السبل. أيدت الرأي القائل بأن القضية الفلسطينية فقدت أولويتها لأسباب مفهومة ومشروعها، لكنني زعمت أن ذلك التحول مرحلي ومحدود الأثر، كما أن الذين استسلموا له أغلبهم من الشرائح التي دخلت حديثا في السياسة، بلا خلفية وتراكم معرفي أو وعي بحقائق الصراع في المنطقة. ولذلك فإنني اعتبرته تحولا عارضا وعابرا، لأن القضية الفلسطينية ضاربة الجذور في الأعماق العربية. وفى التجربة المصرية على الأقل. فما من أسرة إلا ولها جندي أو ضابط قاتل الإسرائيليين أو أصيب أو تم أسره بواسطتهم، ولئن نجح التشويش الإعلامي في تشويه إدراك البعض إلا أننا لا نستطيع أن ندعي بأنه خرَّب الضمائر أيضا.

خلال المناقشات التي جرت نبهت إلى أن الإعلام في العالم العربي وثيق الصلة بالسياسة، ولذلك فإن الإنصاف يقتضى منا أن نحاكم السياسة وندينها أيضا جنبا إلى جنب مع محاكمة الإعلام والإعلاميين واستهجان موقف أغلبهم.

أخيرا فقد كان عقد المنتدى في استانبول قرينة على المدى الذي بلغه التراجع الحاصل في أولويات العالم العربي، حيث لم يكن سرا أن عواصم العرب لم تحتمل انعقاده. وكان رأيي ولا يزال أنها غمة ستزول إن عاجلا أو آجلا.

مجرد رأي

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾

ذ: عبد القادر لوكيلي

....ما من يوم جديد يطلع علينا إلا وتطالعنا وكالات الأخبار بمزيد من مآس وانتهاكات يندى لها الجبين خجلا لخيرة شباب مصر وفتياته ونسائه على أيدي فاسدين انقلابيين قدت قلوبهم من حجر صلد لا يرحمون امرأة ولا طفلا ولا شيخا بلغ من العمر عتيا. كان فرعون يذبح الأبناء ويستحيي النساء، أما هؤلاء فلا يستحيون النساء بل يسحلونهن في الشوارع ويغتصبونهن في المخافر وأقبية السجون... وتجد من يزكي كل هذه الانتهاكات من دعاة الحداثة والعلمانيين والليبراليين وكل ناعق صدع رؤوسنا طيلة سنوات بالديموقراطية واحترام حقوق الإنسان والتصدي للظلم والظالمين وفق المواثيق الدولية ومعاهدات جنيف وطوكيو وجزيرة الواقواق وهلم ثرثرة و «كلام فاضي».....

إن ما يحز في النفس ويصيبك بالغثيان حقيقة ليست مواقف هؤلاء العلمانيين. بل ما يحز في النفس فعلا هي تلك المواقف المخزية والمريبة التي يقفها بعض من تسموا بالعلماء والمشايخ.... فلا تكاد تسمع لهم همسا ولا تنديدا أو شجبا. وحرمات المسلمين تنتهك والحرائر تغتصب والمساجد تحرق أو تغلق وآيات الله يستهزأ بها وتلوى أعناق الآيات تملقا لقائد الانقلاب... وتاريخ مصر يزور نهارا جهارا حتى ليتجرأ المدعو القمص مرقص عزيز (أحد كبار القساوسة الأقباط) فيزبد ويرعد ويتوعد المسلمين قائلا : «يا مسلمين احنا أصحاب البلد و مصر ابتليت بكم، يا متخلفين يا مستعمرين منذ 1400 سنة» و مع ذلك لم نسمع من شيوخنا الأفاضل دام ظلهم همسا... ولا إشارة ولا تنديدا ولا هم يحزنون، وكأن الأمر لا يعنيهم وهم الذين ملأوا رؤوسنا طيلة السنوات الخوالي بمواعظهم و كلامهم المنمق عن العزة والكرامة ووجوب الجهر بالحق في وجه الظالمين، ووجوب نصرة المظلوم والذود عن حياض الإسلام والمسلمين والمستضعفين في الأرض ووو. ويا ما سمعنا منهم عن مواقف العلماء الربانيين من أمثال سعيد بن جبير و سلطان العلماء العز بن عبد السلام وسعيد بن المسيب وأحمد بن حنبل و غيرهم الكثير من أعلام العلماء الحقيقيين عبر تاريخنا الزاخر.... سكوت بعض هؤلاء المشايخ إزاء كل ما سبق من انتهاكات ليدعو إلى الريبة.

فسكوت العلماء غير سكوت العامة من الناس، لأنهم ورثة الأنبياء. وقد أخذ الله منهم ميثاقا أن يبلغوا الحق الذي أمروا به .... فالعلماء يا مشايخنا بمواقفهم وليس بعلمهم فقط فاحذروا أن تكونوا مع الشياطين الخرص لأنكم سكتم عن قول الحق، واحذروا أن تكونوا في زمرة أحبار بني إسرائيل لأنكم تقولون ما لا تفعلون و﴿كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾.

ملاحظة : أنا هنا لا أتحدث عن المرجفين من العلماء الذين جاهروا بوقوفهم إلى جانب الانقلابيين الظلمة من أول يوم من أمثال علي «كفتة» صاحب فتوى « اضرب في المليان» أو الهلالي الذي وصف السيسي و محمد إبراهيم بأنبياء الله موسى و هارون ، أو شيخ الأزهر ، أو دراويش حزب الزور (النور سابقا) أو ذلك العالم «المودرن» الذي أفتى بضرورة تطليق الزوجة الإخوانية وتبعته في فتواه سيدة داعية كنا نعدها من الأخيار ...إنما كلامي على بعض المشايخ الكبار الذين ابتلعوا ألسنتهم وآثروا السكوت وعدم الخوض فيما اعتبروه «فتنة» زاعمين الوقوف على الحياد لتبرير مواقفهم المريبة ..... فيا علماء الأمة يا ملح الطعام، من يصلح الطعام إذا الملح فسد... اتقوا الله في علمكم الذي استخلفكم الله عليه، ﴿واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾... يوم تقفون فيه أمام الواحد القهار حفاة عراة غرلا...يوما يقول الله فيه لملائكته ﴿وقفوهم انهم مسؤولون﴾.

ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

بنبض القلب

صفعة على قفا العلمانية

ذ: أحمد الأشهب

لكم أن تتصوروا مدى الإحباط الذي يحس به غلاة العلمانية في العالم العربي والإسلامي عامة، وفي تركيا خاصة، بعد الفوز الكاسح لحزب العدالة والتنمية بقيادة أردوغان في الانتخابات البلدية... لقد حاول المعادون للتجربة الإسلامية وبكل ما أوتوا من دهاء سياسي، ودعم خارجي إفشال التجربة الرائعة التي تعيشها تركيا لأول مرة في تاريخها الحديث، حيث استطاعت أن تحافظ على نمو اقتصادي في حدود 7% ، في الوقت الذي تعيش فيه اقتصاديات أوروبا والولايات المتحدة أسوأ أيامها، كما استطاعت تركيا أن تتخلص من ديونها الخارجية كلها منذ مارس 2013، بل أصبحت مستعدة لإقراض صندوق النقد الدولي وكبرى المؤسسات المالية... كل هذا أزعج عتاة العلمانية الذين عاثوا في تركيا فسادا منذ سقوط الخلافة سنة 1924، وسخروا الجيش لخدمة مآربهم الدنيئة، فصادروا الحريات، وخاطوا دستور تركيا على مقاسهم حتى لا يسع غيرهم... لكن الشعب التركي اليوم عرف من هو في صفه، ومن هي الجهة التي تحمل همومه، وتقاسمه آلامه وآماله، وقد جاء خطاب أردوغان معبرا عن هذه الحقيقة غداة فوز حزبه في الانتخابات المحلية حيث قال : «نحن لسنا أمراء على هذا الشعب بل خدامه...».. فمباشرة بعد الربيع العربي، ووقوف تركيا مع الشعوب العربية التواقة إلى الانعتاق والحرية، وفتح حدودها للمعارضة السورية، وعدم قبولها بالانقلاب العسكري والالتفاف على الثورة المصرية، بدأت خفافيش العلمانية تثير القلاقل في تركيا، بَدْءاً بميدان «تقسيم» وليس انتهاء بالمحاولات الانقلابية التي حاول الجيش وحلفاؤه القيام بها لولا فطنة النظام والشعب التركي، هذا الأخير الذي لم يعد مستعدا أن تعود به المؤامرات إلى عهد العسكر ومظالمه..

فتحية للشعب التركي وإلى كل الشعوب المتعطشة إلى حياة آمنة طيبة... لقد كانت فعلا صفعة قوية لكل المتآمرين وكل المخدوعين بديموقراطية العسكر وأذنابه، ولربما قد تعيد البعض إلى رشده.

افتتاح أول متحف إسلامي في أستراليا

تَمَّ هذا الأسبوع افتتاح «المتحف الإسلامي الأسترالي»، بحضور كل من: «جوي هوكي» وزير المالية الأسترالي و«نكولاس كوتسيراس» وزير التعددية الثقافية و«أحمد فاهور»، مدير عام إدارة البريد الأسترالي، التي أنجزت بناء ذلك المتحف. وأعلن «أحمد فاهور» في الكلمة التي ألقاها خلال الافتتاح أنه لا توجد أماكن شاغرة لزيارة المتحف على مدى الشهرين التاليين؛ حيث تَم حجز جميع الأماكن لمدة شهرين قبل افتتاح المتحف لزيارة الجماهير. وأضاف: إن المتحف الإسلامي الأسترالي ليس مجرد متحف يعرض التاريخ فحسب، وإنما يقدم معلومات للزوار عن الدين الإسلامي والمسلمين، ويعرض الثقافة الإسلامية؛ ليُسهم ولو بمقدار قليل في تغيير المفاهيم المغلوطة والأحكام المسبقة عن الدين الإسلامي في ذهن الأستراليين، وأكد «فاهور» أن المتحف يعد مركزًا يجمع بين الثقافة والتعليم.

الغنوشي من أنقرة: الانتخابات ستعقد بموعدها

قال رئيس حركة النهضة التونسية راشد الغنّوشي في تصريح إعلامي خلال زيارة إلى أنقرة أنّ تونس ستنجز الانتخابات التشريعية و الرّئاسيّة في الموعد المحّدد لها، أي قبيل انتهاء عام 2014 . وأضاف الغنّوشي في تصريحاته أنّ تونس نجحت في الوصول إلى تحقيق توافق وطني نتج عنه «كتابة دستور عظيم يزاوج بين قيم الإسلام وقيم الدّيمقراطيّة وحكومة توافق وطني».

وأكّد رئيس حركة النهضة أن تونس تتّجه قدما نحو إجراء انتخابات «حرّة ونزيهة » قبل نهاية سنة 2014.

واشنطن تعرب عن خيبة أملها وقلقها من المصالحة

أعربت الإدارة الأمريكية عن خيبة أملها من اتفاق المصالحة الذي جرى الإعلان عنه بغزة ، معربة عن قلقها من هذا الاتفاق.وحذرت المتحدثة باسم وزارة الخارجية الأميركية جنيفر بساكي من أن اتفاق المصالحة الجديد قد يعقد الجهود الجارية لتحريك العملية السلمية، وفق رأيها .وقالت في مؤتمر صحفي: إن «على أي حكومة فلسطينية أن تلتزم دون لبس بمبادئ اللاعنف ووجود دولة إسرائيل»، مضيفة أن «غياب الالتزام الواضح بهذه المبادئ يمكن أن يعقد بشكل جدي جهودنا لمواصلة المفاوضات». وتابعت : «من الصعب التفكير كيف ستتمكن إسرائيل من التفاوض مع حكومة لا تؤمن بحقها في الوجود»، مشيرة إلى أن الولايات المتحدة تشعر في آن واحد بـ«خيبة أمل» وبـ «القلق» إزاء هذا الإعلان.

«محمد» و«زينب» في صدارة الأسماء شيوعًا في تركيا

عادت تركيا بقوة إلى جذورها الإسلامية بعد أعوام طويلة من الحكم العلماني المتطرف الذي بدأه كمال أتاتورك عقب إلغائه الخلافة الإسلامية. فقد كشف المركز الإحصائي التركي أن أكثر الأسماء المطلقة على الأطفال البالغة نسبتهم في تركيا 29.7% هي «محمد» عند الذكور، و«زينب» عند الإناث. وقال المركز الإحصائي أن عدد سكان تركيا خلال عام 2013 بلغ 76 مليونًا و667 ألفًا و864 نسمة، ويشكل الأطفال نسبة 29.7% من إجمالي عدد السكان، حيث يبلغ عددهم 22 مليونًا و761 ألفًا و 702 نسمة.

توحد مسلمي أميركا للمطالبة بهم أعيادهم للعطلات الرسمية

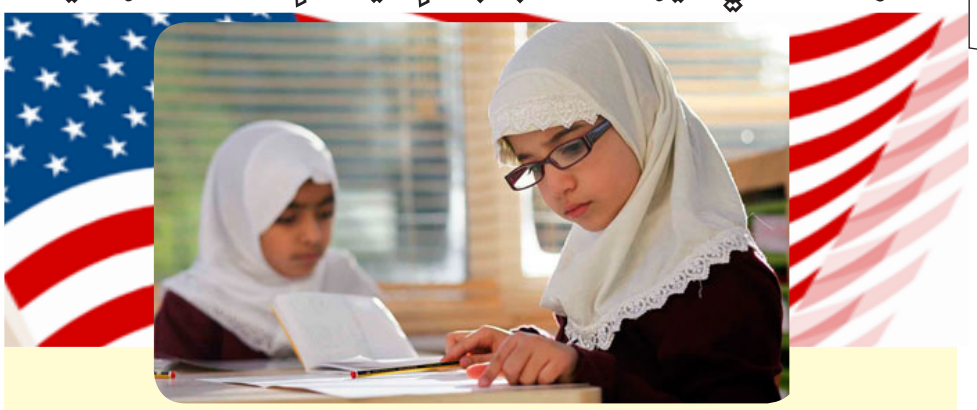

عقد عدد كبير من المسلمين بمدينة «نيويورك» الأمريكية لقاءً لدعم مطلبهم باعتبار الأعياد الإسلامية عطلة رسمية، وذلك على خلفية تشكيل المسلمين ما بين 600 ألف ومليون مواطن، إضافة إلى التحاق 95% من أطفالهم بالمدارس العامة؛ حيث يشكلون 10% من الطلاب. وقد أكد المسلمون المجتمعون من مختلف الجنسيات واللغات، ضرورة تفعيل دعوة العمدة التي أطلقها أكتوبر الماضي، باعتبار الأعياد الإسلامية عطلة رسمية، أسوةً بأعياد النصارى واليهود.

الدانمارك: لأول مرة نشر معاني القرآن الكريم باللغة الدانماركية

تَم إعداد ونشر معاني القرآن الكريم باللغة الدنماركية لأول مرة، بمساع من المستشار الديني الدكتور «أحمد أوناي»، استغرقت ترجمة المعاني 3 سنوات، وفي النهاية طبع 3.300 نسخة من معاني القرآن الكريم باللغة الدنماركية. وقال الدكتور «أحمد أوناي»: إنه من المخطط أن يصل إجمالي عدد النسخ المطبوعة إلى 10 آلاف نسخة، ، وثمن النسخة الواحدة 150 كرونا. وأضاف «أوناي»: أود أن أشكر كل من ساهم في إعداد معاني القرآن الكريم باللغة الدنماركية، وأحمد الله الذي وفَّقني أنا و«أحمد شيمشاك» إلى هذه الترجمة، وإذا كان هناك أية أخطاء نرجو من القراء تقديم مقترحاتهم لتحسين الترجمة وتعديل الأخطاء.

الخبر الصحي

أكل السمك يقوي الذكاء

توصل باحثون بريطانيون إلى أن تناول الطعام الغني بالأحماض الدهنية اللامشبعة والمعروفة باسم أوميغا 3 يعزز تدفق الدم إلى الدماغ ويحسّن أداءه أثناء المهام التي تتطلب تركيزاً ذهنياً.

وكما هو معلوم فإن الفوائد الصحية لأوميغا 3، التي توجد في السمك والخضراوات الورقية والزيوت النباتية كثيرة.

وتوصل البحث الجديد أن أوميغا 3 يمكن أن تحسّن أيضاً أوقات رد الفعل، فضلاً عن تقليل مستويات الإجهاد في الدماغ بعد أداء مهام شاقة.

ويقول الباحثون : إن هذه النتائج قد تكون ذات أهمية خاصة للمسنين، حيث إن اتباع نظام غذائي غني بأوميغا 3 يوفّر إمكانية درء الخرف.

قشور الحوامض غنية بفيتامين C

كشفت دراسات حديثة أن بعض بقايا الطعام التي نقوم عادة بالتخلص منها، مفيدة للصحة لغناها بالمواد الغذائية، كقشور الحمضيات على سبيل المثال، حيث تعد أغنى في محتواها من الفيتامين سي، ومضادات الأكسدة من الليمون والحامض.

كما يحتوي قشر الحمضيات على أربعة أضعاف كمية الألياف في هذه الفاكهة. ويمكن استخدام هذه القشور في السلطات أو إضافتها إلى الشاي. أما قشر البطيخ فهو أيضا غني بالفوائد الغذائية، حيث يحتوي على كميات كبيرة من السيترولين وهو نوع من الأحماض الأمينية التي تنشط الدورة الدموية وتعالج ارتفاع ضغط الدم، ويمكن أيضا طحنه وإضافته إلى العصائر.

الشيخ أبو الحسن الندوي، حكيم الوسطية (4)

- الوسطية في الأدب :

أ. د. حسن الأمراني

منذ وقع الاحتكاك في العصور الحديثة بين الحضارة الغربية والعالم الإسلامي، انطلاقا من حملة نابليون على مصر عام (1789م) حتى استعمار فرنسا الجزائر عام (1830م) ودخول الإنجليز إلى الهند وإعلان الملكة فكتوريا نفسها إمبراطورة على الهند عام (1877م)، بدأت الفكرة الغربية تتغلغل في العالم الإسلامي، ومن ضمن ذلك الأدب، وصار الشرق الإسلامي موضوعا أثيرا لدى أدباء الغرب، حيث كتب الأديب الإنجليزي روديار كبلنج: (كتاب الأدغال)، مستلهما وجوده في الهند، وكتب الشاعر الألماني غوته ديوانه: (الديوان الشرقي للشاعر الغربي)، كما كتب الشاعر الفرنسي فكتور هيجو ديوانه: (الشرقيات) . وكما تباينت مواقف أدباء الغرب في كتاباتهم تلك بين الإعجاب والاستهجان، كذلك بدأت تتشكل مواقف متباينة داخل كتاب العالم الإسلامي وأدبائه تجاه الحضارة الغربية، بعامة، والأدب الغربي بخاصة، فهناك من ظل متشبثا بالثقافة القديمة رافضا كل جديد، ظنا منه أن ذلك يمثل نوعا من التشبث بالأصالة وحفاظا على الهوية والحصانة ضد الاقتلاع الحضاري، بينما انسلخت طائفة من أدبائنا وأقبلوا ـ هروبا من تقليد القديم ـ يقلدون كل ما ظهر في الغرب من المذاهب والاتجاهات والأفكار.

وكما عهدنا الشيخ أبا الحسن، وهو الأديب المرهف، المتعدد المواهب واللغات، ينحو نحو الوسطية في المواقف كلها، وجدناه يتخذ في الأدب موقف الوسطية الذي يبحث عن المفيد والجميل، ولا يهمه في ذلك ـ إن أرضى الحق ـ أن يغضب المحافظين والحداثيين على السواء. بل لقد كانت له اجتهادات خاصة ومتميزة في مجال الأدب، ومنها أنه كان سباقا إلى تجاوز النظرة الاستشراقية إلى الأدب العربي، حيث فتح عيون الناس على أن الأدب العربي ليس محصورا فيما كلف به المستشرقون، وقدموه لنا في تواريخهم لآدابنا، بل لقد بين لنا أن عيون الأدب العربي ليست وقفا على تلك المظان المذكورة والمشهورة، وإنما أجمل الآداب وأصدقها وأبينها وأروعها ليست مبثوثة في كتب الآداب، بقدر ما هي كامنة في كتب تبدو لأول وهلة أبعد ما تكون عن الأدب، وذلك مثل كتب السيرة، وكتب التاريخ، وحتى كتب الأصول والفقه. فقد نبه مثلا، خلال اختياره عضوا في مجمع اللغة العربية بدمشق، على نظرة جديدة للأدب العربي، عندما وقف عند نص أدبي رائع أوردته كتب السيرة، وهو حديث كعب بن مالك، رضي الله عنه، وهو من الثلاثة الذين خلفوا.

كما أن كتابه: (مختارات من أدب العرب) دل على ذوق أدبي رفيع وحس مرهف ونظر جديد إلى الأدب العربي. وقد أشاد الأستاذ علي الطنطاوي رحمه الله بهذا الكتاب ومنهجه، فكان مما قال: «ولقد كنت أتمنى من قديم أن نخرج بتلاميذنا من هذا السجن الضيق المظلم الذي حشرناهم فيه إلى فضاء الحرية، وإلى ضياء النهار، فلا نقتصر في الاختيار على (وصف الكتاب) للجاحظ، وهو جمل مترادفة لا تؤلف بينها فكرة جامعة، ولا يمدها روح، ولا تخالطها حياة، وعلى ألاعيب ابن العميد، وغلاظات الصاحب، وهندسات القاضي الفاضل، فننفر التلاميذ من الأدب، ونكرهه إليهم!!

وكنا نقول لهم: إن البيان الحق عند غير هؤلاء، وإن أبا حيان التوحيدي أكتب من الجاحظ، وإن كان الجاحظ أوسع رواية وأكثر علما، وأشد تصرفا في فنون القول، وأكبر أستاذية، وإن الحسن البصري أبلغ منهما، وإن ابن السماك أبلغ من الحسن البصري، وإن النظر فيما كتب الغزالي في الإحياء، وابن خلدون في المقدمة، وابن الجوزي في الصيد، وابن هشام في السيرة، بل والشافعي في الأم، والسرخسي في المبسوط، أجدى على التلميذ وأنفع له في التأدب من قراءة حماقات الصاحب ومخرقات الحريري وابن الأثير.» [عن كتاب (أبو الحسن علي الحسني الندوي الداعية الحكيم والمربي الجليل). ص 146 . 147]

في حوار أجرته مجلة المشكاة المغربية مع سماحة الشيخ الندوي سألناه إن كان يصح أن نطلق مصطلح (الأدب الإسلامي) على النصوص الأدبية التي ينتجها الغربيون من غير المسلمين، وتتلاقى تصوراتها مع التصور الإسلامي، (وذلك أمر أثار جدلا بين أهل الأدب الإسلامي منذ أقدم الأستاذ محمد قطب على تقديم نماذج من الأدب الغربي في كتابه عن منهج الفن الإسلامي) فقال الشيخ :لا، فقلنا : إذن ما التسمية التي تقترحها لذلك الأدب؟ فقال دون تردد: (أدب صالح). هذا هو المقياس إذن، وهذا هو الميزان الذي يزن به الشيخ أبو الحسن الأدب، سواء أكان شرقيا أم غربيا: الأدب الذي ندعو إليه، والأدب الذي ندعو إلى قراءته والاستفادة منه، يجب أن يكون صالحا. الصلاح والجودة هما سر تقدم الأدب. ومن هنا لم يكن الشيخ أبو الحسن مناصرا ولا عدوا للأدب، بالنظر إلى منشئه، بل بالنظر إلى الأدب نفسه. وهو يشرح لنا سر إعجابه بإقبال فيقول: (إن أعظم ما حملني على الإعجاب بشعره هو: الطموح، والحب، والإيمان، وقد تجلى هذا المزيج في شعره وفي رسالته أعظم مما تجلى في شعر معاصر، وهي تندفع اندفاعا قويا إلى كل أدب ورسالة يبعثان الطموح وسمو النفس، وبعد النظر والحرص على سيادة الإسلام وتسخير هذا الكون لصالحه، والسيطرة على النفس والآفاق، ويغذيان الحب والعاطفة، ويبعثان الإيمان بالله والإيمان بمحمد ﷺ، وبعبقرية سيرته، وخلود رسالته، وعموم إمامته للبشرية كلها.) (روائع إقبال، طبعة دار القلم، ص 9)

وقد رأينا من قبل كيف كان ميالا إلى المشاركة في علوم وآداب يتحاشى عنها كثير من علماء الدين، بل كثير من علماء الأدب أيضا. ففي يناير من عام 1986م، وفي ندوة العلماء، دار العلوم، بلكنو، أسست رابطة الأدب الإسلامي، وكان بعض مؤسسيها ممن يعادي الشعر الحر، الذي ظهر في العالم العربي في منتصف القرن الماضي على يد نازك الملائكة، وكان يسمي ذلك الشعر (الشعر المنفلت) ويعتبره مؤامرة على تراثنا. وقد أخبرني بعض أدباء الهند، ومنهم الأستاذ عبد النور الندوي رحمه الله، أنه ظهرت هذه الحركة في الهند أيضا، وذلك بعد الجيل الذي خلف جيل إقبال. ولكن الشيخ أبا الحسن لم يكن عدوا لشيء من ذلك ما دام يحمل رسالة سامية، أو بتعبير آخر: (ما دام صالحا)، فقد يستمع لذلك الشعر، بل ويطرب له أيضا، ولذلك انضم كثير من الشعراء الإسلاميين الذين يكتبون الشعر التفعيلي إلى رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وتقوت بهم، ومنهم على سبيل المثال، ممن أفضى إلى ربه:الشاعر حسين علي محمد والشاعر عبد المنعم عواد يوسف من مصر، والشاعر محمد بنعمارة والشاعر فريد الأنصاري من المغرب، رحمهم الله جميعا.

وإذا كان الشيخ أبو الحسن يرحب بالأدب الصالح مهما كان مصدره، فإنه في مقابل ذلك كان محاربا للأدب المنحرف مهما كان مصدره. ومما لا ريب فيه أن الآداب في العالم الإسلامي في العصور الحديثة قد أصيبت بلوثة الفساد، نتيجة تأثرها بالفلسفات والمذاهب الغربية المنحرفة، ففي العالم العربي مثلا ظهر عندنا الفكر الوجودي، ممثلا في بعض الشعراء، من أمثال صلاح عبد الصبور، وفي بعض المنابر الثقافية، من أمثال مجلة (الآداب) البروتية، كما وجدت المذاهب اليسارية، بمختلف اتجاهاتها، كالشيوعية والفوضية، مرتعا خصبا في بلادنا، واغترب الأدب الإسلامي في بلاده، مما دعا الشيخ أبا الحسن إلى النهوض بمواجهة ذلك الانحراف، وكان من بين تلك الوسائل التي كان يواجه بها الانحراف، رابطة الأدب الإسلامي العالمية. يقول في (مسيرة حياة): « إن الكاتب بتأثير الأسرة والبيئة وانتمائه إلى طبقة خاصة ومؤسسة خاصة (ندوة العلماء) لم يغفل..الميول والنزعات الأدبية السائدة في عصره، ودراسة الحركات الأدبية واستعراض آثارها الإيجابية أو السلبية على النشء الجديد وأوساط المشتغلين بالعلم والأدب، والتفرس لأخطار تحرر الأدب والشعر والفكر والبحث عن ربقة الدين والأخلاق، بل معارضتها للدين ومجابهتها له، ونتائجها الخطيرة المريرة والقيام بمقاومة هذه الفتنة، وتنبيه الناس لها، لم يغفل المؤلف شيئا من ذلك، وهذا الذي حمله على قبوله لمسؤولية (رابطة الأدب الإسلامي) ورئاسته».[مسيرة حياة: 2 \ 159].

لم يكتف الشيخ أبو الحسن بوصف ما آلت إليها الآداب من الانحدار والتردي، بل كان شأنه في ذلك شأن النطاسي الخبير الذي يبحث عن أصل الداء لاجتثاثه، والكشف عن الدواء الناجع. وهكذا ففي ندوة من ندوات رابطة الأدب الإسلامي بالهند، وصف أصل الداء، مبينا أن انحراف الأدب كان نتيجة لانحراف الفكر، فقال: « إن السبب الأكبر والأساسي لانحراف الغرب وضلاله وزيغه واختلاله، هو حرمانه من نور النبوة والرسالة، فإن النبوة وحدها هي التي تخرج الإنسان من الظن والتخمين، وتبلغه إلى الإيمان واليقين. ولم يزل الغرب رغم جميع فتواحاته وانتصاراته المادية، وفي رحلته الطويلة في العلم، محروما من النبوة.»

ثم صرح بعد ذلك «بأن القيادة العلمية والفكرية والأدبية للعالم كله من واجبات المسلمين، وهي حق للأمة الإسلامية، وماذا سيجر من شقاء وبلاء لو تخلت الأمة عن منصبها ودورها القيادي، وما تلحق بها كذلك من خسائر وأخطار» [مسيرة حياة: 2 \ 167] ولن يستطيع أدباء الإسلام أن ينهضوا برسالتهم الملقاة على عاتقهم إلا باسترجاع روح النبوة، تلك الروح التي تلبست محمد إقبال فأبدع أيما إبداع في شعره الحي الذي أيقظ القلوب، وأحيا النفوس وألهب المشاعر:

« لقد أصبح العالم من غزو الإفرنج وظلمه خرابا يبابا، فقم يا باني الحرم، لبناء العالم من جديد، قم من السبات العميق الذي طال أمده واشتدت وطأته». [مسيرة حياة: 3/131]

إلى أن نلتقـــي

نظرات في إصلاح التعليم (10)

لـماذا نجَـح التّعـليـم فـي بـلادنـا بعد الاسـتـقـلال ؟ (4)

إذا كان المعلم/ الأستاذ والتلميذ معاً دعامتين أساسيتين لنجاح العملية التعليمية في كل مكان وزمان، بما في ذلك فترة ما بعد الاستقلال، كما بينا سابقا، فإن هناك دعامة ثالثة لا تقل عن السابقتين إن لم تكن هي الأهم فيها، إنها الخطة، إنها الهدف، إنها التصور العام للعملية التعليمية كلها، ماذا نريد منها؟ وماذا نريد أن تحقق لنا؟

لقد كانت الخطة الكبرى بعد مرحلة الاستقلال تتجلى في تكوين الأطر الوطنية في القطاعات المختلفة، وفي مقدمة ذلك قطاع التعليم، وقد أُنشئت من أجل ذلك مؤسسات خاصة كمدارس تكوين المعلمين، والمراكز التربوية الجهوية، والمدارس العليا للأساتذة، بل حتى على مستوى التعليم العالي أُنشئت تكوينات خاصة في أواسط الثمانينات من القرن الماضي من أجل تكوين خاص لأساتذة جامعيين، عُرف بنظام «تكوين المكونين» (F.F.)، ولقد أتى ذلك كله أكله نظرا للحاجة التي كانت تعرفها البلاد آنذاك لهذه الأطر. وكل أجيال الستينات والسبعينات وحتى الثمانينات من القرن الميلادي الماضي تعرف جيدا هذه الحاجة، فلقد كان يُدَرِّس في المغرب عدد كبير من الأساتذة العرب والأجانب؛ (مصريون، سوريون، عراقيون، أردنيون، سودانيون، فرنسيون، رومانيون، إسبانيون، إنجليز،...) وحتى عموم القطاعات الإدارية لم تكن هي الأخرى تخلو من أجانب.

ولذلك لَمَّا كان الهدف واضحا نجح التعليم بشكل كبير، وتمت مغربة الأطر التعليمية والإدارية، بل وتم تعريب عدد من العلوم الإنسانية (التاريخ والجغرافيا والفلسفة) في جميع المراحل التعليمية، ثم عُربت مقررات العلوم الدقيقة إلى نهاية المرحلة الثانوية. بل أكثر من هذا اشتغل منذ بداية التسعينات من القرن الماضي عدد من الأطر التعليمية والإدارية خريجي الجامعة المغربية خارج المغرب، وخاصة في دول الخليج وأوربا، وهذا يدل على أن الوفرة في هذه الأطر قد حصلت في الداخل، وتم الاكتفاء الذاتي فيها. كما أنه بعد أن كان الطلاب المغاربة يهاجرون من أجل الدراسة في الخارج في جميع العلوم بما في ذلك علوم الشريعة وعلوم اللغة العربية وآدابها، أصبحت الجامعة المغربية الآن تستقبل المآت من الطلبة من العديد من الدول.

كل هذا يدل على أنه حينما تكون هناك خطة وهدف، لا بد أن تحقق العملية التعليميةُ نتيجةً، حتى وإن لم تكن كاملة فإنها تكون نسبية على الأقل.

إن إنجاز الخطط غير المدروسة لا يمكن أن تكون ناجعة ولا ناجحة، فإعلان خطة خماسية أو رباعية، واعتماد برامج استعجالية أو علاجية لا تكون مجدية، إن لم تكن هناك خطة عملية تحدد الهدف بالذات. وطبعا ليس الأمر خاصا بالتعليم بل هو عام في كل القطاعات والمجالات.

لقد وضع النبي يوسف عليه السلام منذ آلاف السنين خطة اقتصادية لخمس عشرة سنة، في أحلك الظروف المناخية، ونجحت تلك الخطة لأنها قائمة على عِلم، كما أنها كانت دقيقة غاية الدقة. فهل عجزنا نحن في عصر الرقميات أن نضع خططا تعليمية عملية قابلة للتطبيق، نُحقق من خلالها الأمن لوطننا وأمتنا من جميع الجوانب (العلم. الغذاء. الشغل. السِّلم. التقدم . الازدهار الخ)؟

أليس من مستطاعنا أن نأخذ دروسا من واقعنا وتاريخنا، وواقع الشعوب المحيطة بنا وتاريخها من أجل بناء منظومة تعليمية تستجيب لمتطلبات التنمية والتقدم؟

تلك ركائز ثلاثة : المعلم / الأستاذ+ التلميذ/ الطالب+ الخطة المدروسة، ولا يمكن بأي حال لعجلة التعليم أن تستوي دون أن تكون هذه المرتكزات الثلاثة قائمة بشكل مسْتَوٍ.

د. عبد الرحيم الرحموني